إريانديرا البريئة وجدتها القاسية

وقصص أخرى

إرينديرا البريئة وجدتها القاسية

وقصص أخرى

تأليف

غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة

مصطفى علي

إريנديرا البريئة وجدتها القاسية وقصص أخرى

تأليف: غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: مصطفى علي.

سنة الطباعة: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

تقديم

"إرينديرا البريئة" وقصص أخرى.. مجموعة قصص من أروع ما كتب الأديب العالمي الكولومبي الأصل غابرييل غارسيا ماركيز، الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٨٢م.

وقد ولد ماركيز في قرية أركاتاكا بكولومبيا في أمريكا اللاتينية عام ١٩٢٨ وعاش طفولته مع جده الذي أثّر فيه كثيراً بقصصه الخيالية وحكاياته التي كان يحكيها له.. تلك القصص والحكايات التي وجدت صداها في معظم رواياته وقصصه وعلى رأسها بالطبع رائعته ذائعة الصيت: مائة عام من العزلة.

في شبابه رحل إلى مدينة بوجوتا من أجل أن يدرس القانون، إلا أنه ما لبث أن ترك الدراسة واتجه إلى العمل الصحفي والأدب.

وقد أتاحت له الصحافة فرصة المواجهة مع الدكتاتور العسكري روفاس بيلا الذي كان يحكم بلاده آنذاك، ثم عمل مراسلاً صحافياً في أوروبا لصحيفة سبكتادور،

إلى أن أغلقت تلك الصحيفة أبوابها، فعاش في ظروف مالية متعثرة بعض الوقت.

ولسنوات عديدة راح يقسم وقته وحياته بين فنزويلا والمكسيك وكوبا من أجل الكتابة، فكان يكتب المقالات لبعض الصحف والمجلات. كما كان يكتب السيناريوهات السينمائية.

وقد عرفت الشهرة طريقها إلى ماركيز عام ١٩٦٧، حين انتهى من كتابة روايته الرائعة: "مائة عام من العزلة"، التي جعلت اسمه من أبرز الأسماء الأدبية في أمريكا اللاتينية، ولفتت إليه الأنظار في أنحاء كثيرة من العالم.

قبل "مائة عام من العزلة" كان قد نشر رواية: "ساعة نحس" عام ١٩٦١، ورواية: "ليس لدى الكولونيل من يراسله" عام ١٩٦٢م.

وتتابعت بعد ذلك رواياته، التي يصنفها النقاد في باب (الواقعية السحرية).. منها: خريف البطريرك، وقائع موت معلن، الجنرال في متاهته، الحب في زمن الكوليرا، الحب وشياطين أخرى.. بالإضافة إلى الكثير من القصص

القصيرة، التي اخترنا لك منها - عزيزي القارئ - هذه المجموعة، والتي نرجو أن تحوز إعجابكم.

عصر يوم عجيب في حياة بلتزار

بعدما انتهى "بلتزار" من صنع قفص العصافير، علقه في السقف في مقدمة محل النجارة الذي يملكه كالعادة، وما كاد ينتهي من غدائه، حتى كان جمع غفير من الناس يلتفون حول القفص، ويهمسون لبعضهم البعض بأن هذا القفص هو أجمل قفص في العالم، وازدحم الناس أمام المحل، مما اضطر "بلتزار" إلى إنزال القفص من مكانه، وإغلاق المحل.

قالت له زوجته "أورسولا":

- ذقنك طويلة.. بحاجة إلى الحلاقة.. فشكلك بها مثل شكل القرود.

فردّ عليها:

- الحلاقة بعد الغداء لا تجوز!

كان قد مرّ عليه أسبوعان دون أن يحلق ذقنه، وكان شعر رأسه القصير والخشن أشعثَ ويبدو كفروة الخروف. كان مظهره العام أشبه بالطفل المذعور، وإن كانت حقيقته غير ذلك.

في فبراير الماضي، كان قد بلغ الثلاثين من عمره، وكانت زوجته "أورسولا" تعيش معه منذ أربع سنوات تقريباً، دون أن ينجبا أطفالاً.

كانت أسباب الحرص لديه كثيرة، ولكن لم يكن لديه سبب واحد للخوف، ثم إنه لم يكن منتبهاً إلى أن بعض الناس يعتبرون القفص الذي انتهى لتوه من صنعه يعتبر أجمل قفص في العالم!

الفرق الوحيد بين هذا القفص وغيره، بالنسبة لشخص مثله يصنع الأقفاص منذ نعومة أظافره، هو أنه بذل فيه جهداً أكثر قليلاً من الأقفاص الأخرى التي صنعها من قبل.

قالت أورسولا:

- ألن تستريح قليلاً.. أنت ولاشك متعب.. ولا تنسَ أن رجلاً بمثل هذه الذقن الطويلة لا يليق به أن يظهر في أي مكان.

وبينما كان يتمدد على أرجوحته الشبكية، ليأخذ قسطاً من الراحة، اضطر إلى النهوض أكثر من مرة ليلبي طلب أحد جيرانه لرؤية القفص..

حتى ذلك الوقت الم تكن "أورسولا" تعير القفص أدنى اهتمام. كانت معتلّة المزاج، لأن زوجها أهمل عمله الأساسي كنجار، وتفرغ لصنع هذا القفص. ولأنه طوال أسبوعين لم يأخذ كفايته من النوم، وكان يروح ويجيء كالمجانين، وينظر إلى القفص، ويقول كلاماً ليس له معنى، ناسياً أن يحلق ذقنه.

ولكن امتعاضها واعتلال مزاجها انقشعا بعدما أتم زوجها صنع القفص.

وحين أفاق "بلتزار" من قيلولته، كانت "أورسولا" قد كوت له بنطلوناً وقميصاً، ووضعتهما على كرسي بالقرب من أرجوحته الشكبية، ثم وضعت القفص على مائدة الطعام، وراحت تنظر إليه في صمت، ثم ابتدرته قائلة:

- بكم ستبيعه؟

فأجابها:

- لا أدري.. فسأطلب ثمناً له ثلاثين بيزو.. لعلي أحصل على عشرين.

فقالت له:

- بل اطلب خمسين.. فلقد سهرت على صنعه لياليَ كثيرة طوال الأسبوعين الماضيين، كما أنه قفص كبير، لا أذكر أنني رأيت أكبر منه في حياتي.

وبينما كان يحلق ذقنه، سألها:

- أتظنين أنهم يدفعون فيه خمسين بيزو؟

فقالت:

- هذا مبلغ تافه بالنسبة لرجل مثل "خوسيه مونتييل".. ثم إن القفص يساوي أكثر.. اطلب ستين.

كان الحر الشديد يغلِّف البيت في الأسبوع الأول من شهر أبريل.. وكان "بلتزار" قد انتهى من ارتداء ملابسه، ثم فتح باب البيت، عسى أن يدخله بعض الهواء، فاندفعت مجموعة من الأطفال إلى داخل البيت، وتحلّقوا حول القفص الموضوع فوق المائدة.

كان الخبر قد ذاع وانتشر في كل مكان، وكان الدكتور "أوكتافيو جيرالدو" ـ وهو طبيب عجوز هدَّه التعب في ممارسة مهنته، إلا أنه كان مازال راضياً عن الحياة ـ يفكر في قفص "بلتزار" أثناء تناوله الغداء مع زوجته القعيدة في شرفة المنزل التي يضعون بها مائدة الطعام

أيام الحر، والتي كانت تكتظ بأصص الزهور وأقفاص العصافير.

كانت زوجته تحب العصافير، إلى درجة أنها كانت تكره القطط لأنها تفترسها.

خرج الدكتور "أوكتافيو جيرالدو" من البيت، وهو مشغول بالتفكير في زوجته، ليزور مريضاً من مرضاه، ثم عرج في طريق عودته على بيت "بلتزار" ليشاهد القفص الذي سمع عنه.

كانت غرفة المائدة مكتظة بالناس، وكان القفص الذي يشبه قبة ضخمة من السلك، يتوسط مائدة الطعام.. كان يتكون من ثلاثة طوابق داخلية، وكانت به ممرات كثيرة، وغرفة خاصة لنوم العصافير، وأخرى لتأكل فيها، كما كان في فضائه المخصص لطيرانها أرجوحة تقف عليها كان القفص يبدو كنموذج صغير لمصنع ثلج كبير!

تأمّل الدكتور "جيرالدو" القفص طويلاً، دون أن يلمسه بيديه، وتيقن أنه بالفعل أجمل مما كان يتصور، وأروع

كثيراً من ذلك الذي تمنى في أي وقت من الأوقات أن يهديه لزوجته المحبة للعصافير!

وبحث وسط الجمع الملتف حول القفص عن "بلتزار" وحين وجده قال له:

- هذا القفص مغامرة من مغامرات الخيال!

ثم أضاف، وهو يرمق "بلتزار" بنظراته التي تشع حناناً كحنان الأمهات:

- يا للخسارة!.. كان من الممكن أن تكون معمارياً فذاً!

فاحمّر وجه "بلتزار" خجلاً وهو يقول:

- أشكرك يا دكتور.

فقال الدكتور:

- هذه هي الحقيقة!

كان الدكتور بديناً، ولكن بدانته كانت غير مفرطة كبدانة امرأة حسناء تقدم بها العمر. وكانت يداه رقيقتين، وكان صوته أشبه بصوت قسيس يتحدث باللاتينية.

قال ـ وهو يلف حول القفص، ويخاطب الناس حوله، كأنه بائع يعرض بضاعته:

- قفص كهذا لا أعتقد أنه يحتاج إلى عصافير.. يكفي أن يضعه المرء بين أشجار الحديقة لكي يغرّد وحده!

ثم توقف عن اللف حول القفص، وفكر لحظة وهو يتأمله ويفحصه، ثم قال:

- لقد اتخذت قراري... سآخذه!

فقالت "أورسولا" باندفاع:

- ولكننا بعناه!

وأضاف "بلتزار":

- بعناه للسيد "خوسيه مونتييل".. سيأخذه لابنه.

وبعد صمت قليل، قال:

- كان قد كلّفني بصنعه خصيصاً له.

- فقال الدكتور جيرالدو ـ بكل وقار:

- وهل كان قد أعطاك مواصفاته؟

وأجاب بلتزار:

- لا.. لم يعطني شيئاً.. ولكنه قال إنه يريد قفصاً كبيراً مثل هذا.. لزوج من طيور "السراب".

ونظر الدكتور جيرالدو إلى القفص مرة ثانية، ثم قال:

- ولكن هذا القفص لا يناسب طيور "السراب"!

فقال بلتزار:

- أعرف..

ثم اقترب من المائدة، والصبية من حوله، وقال:

- مقاسات القفص محسوبة بدقة شديدة.

- وأشار بسبابته إلى أجزاء القفص المختلفة، ونقره بظهر أصابعه، فضجّ المكان بالرنين الرقيق، ثم أضاف قائلاً:

- السلك الذي استخدمته في هذا القفص لا يوجد مثيل له في مقاومته وشدته، وقد لحمت كل وصلة من وصلاته من الداخل ومن الخارج.

وتدخل أحد الصبية في الحديث فجأة وقال:

- إنه لا يصلح حتى لببغاء!

فقال بلتزار مؤكداً:

- فعلاً.

وهز الدكتور جيرالدو رأسه، ثم قال:

- إن السيد مونتييل لم يعطك ـ كما قلت الآن ـ بياناً بالمواصفات، ولم يكلفك بصنع قفص معين.. كل ما طلبه منك أن يكون قفصاً كبيراً لزوج من طيور "السراب".. أليس كذلك؟

فقال بلتزار:

- نعم.. هو كذلك!

فقال الدكتور جيرالدو:

- إذن فليست هناك مشكلة: القفص الكبير الذي يصلح لطيور "السراب" شيء، وقفصك هذا شيء آخر. وعلى ذلك فليس هناك ما يؤكد أن هذا القفص هو ما كلفك بصنعه!

فقال بلتزار بحسم:

- بل هو نفسه.. وما صنعته إلا لهذا الغرض.

فزفر الدكتور جيرالدو مبدياً ضيقه، بينما نظرت أورسولا إلى زوجها وقالت:

- باستطاعتك أن تصنع غيره.

ثم التفتت إلى الدكتور جيرالدو وقالت:

- وأنت لست مستعجلاً.. أليس كذلك؟

فقال لها:

- لقد وعدت زوجتي بأن أحضره لها عصر اليوم.

فقال بلتزار:

- أنا آسف جداً يا سيدي.. فليس بإمكاني أن أبيع شيئاً مرتين! وهز الدكتور جيرالدو كتفيه، وراح يجفف رقبته من العرق بمنديله وهو يتطلع إلى القفص بصمت ، ودون أن يحيد بنظره عن نقطة بعينها غير محددة، كما لو كان ينظر إلى قارب يبتعد في عمق البحر، ثم قال:

- كم سيعطيك السيد مونتييل ثمناً له؟

فنظر بلتزار إلى زوجته أورسولا.. وتلكأ في الجواب، فاندفعت هي إلى القول:

- ستين بيزو

فقال الدكتور جيرالدو وهو يتنهد، دون أن يرفع نظره عن القفص:

- قفص جميل.. لا يمكن أن يكون هناك أجمل منه!

ثم اتجه إلى الباب، وهو يهز منديله بشدة أمام وجهه، جلباً لمزيد من الهواء، وقال وهو ينصرف، راسماً ابتسامة على شفتيه:

- مونتييل رجل واسع الثراء!

وانمحت من ذاكرته تفاصيل هذه الواقعة إلى الأبد.

وواقع الأمر، أن خوسيه مونتييل لم يكن بالثراء الذي توحي به مظاهره، ولكنه كان دائماً على استعداد لعمل أي شيء حتى يصير غنياً، أو على الأقل، حتى يبدو في نظر الناس كذلك.

على مسافة ليست بعيدة من بيت بلتزار، كان مونتييل يعيش في بيت يكتظ بكل الأشياء التي يمكن أن يتخيلها الإنسان. وكان مونتييل قد سمع عن القفص، ولكنه لم يكترث.

بعد الغداء، كان وسواس الموت يقضّ مضاجع زوجته، فيجعلها توصد الأبواب والنوافذ، قبل أن تنام ساعتين مغمضة العينين في ظلام الغرفة، في حين يكون خوسيه مونتييل مستغرقاً في النوم ويشخّر.

وفوجئت الزوجة وهي في هذه الحالة، بصخب أصوات كثيرة قريبة، فنهضت من فراشها وفتحت باب البيت لتستطلع الأمر، ففوجئت بجمع كبير من الناس أمام البيت، يتوسطهم بلتزار حاملاً في يده القفص، وقد ارتدى حلة بيضاء، وبدا بذقنه الحليقة، في حالة من البراءة والسذاجة التي تبدو على الفقراء حين يقتربون من بيوت الأغنياء.

أشرق وجه زوجة مونتييل بالبهجة حين وقع نظرها على القفص في يد بلتزار، ثم قادته إلى داخل البيت وهي تقول:

- ما أروع هذا القفص.. عيني لم تقع على مثله في حياتي أبداً!

وكانت في ضيق من زحمة الناس الذين اندفعوا خلف بلتزار، يدفعهم الفضول لمعرفة ماذا ستسفر عنه الأمور. فقالت له:

- دعهم ينتظرون في الفناء، وتعال أنت إلى الداخل، وإلا تحوَّل البيت إلى حلبة لمصارعة الديوك!

لم يكن بلتزار غريباً في بيت خوسيه مونتييل، فكثيراً ما كان يستدعى للقيام ببعض أعمال النجارة البسيطة في

البيت، وذلك لما عرف عنه من مهارة وإتقان. ولكنه كان لا يشعر أبداً بالارتياح وهو وسط الأغنياء.

كان أحياناً ينشغل بالتفكير في حياتهم وفي زوجاتهم القبيحات المشاكسات، وكان دائماً ما يشعر بالرثاء لهم، وحين كان يدخل بيوتهم، كان يجد صعوبة في التحرك من مكانه، ويشعر كأن شيئاً يربطه.

قال بعد أن وضع القفص على مائدة الطعام وسط الغرفة:

- بيبو هنا؟

فقالت زوجة مونتييل:

- إنه في المدرسة.. ولكنه سيحضر بعد قليل.

ثم أضافت:

- ولكن مونتييل في الحمام.

والواقع أن مونتييل لم يستحم لضيق الوقت، واكتفى بمسح جسده بالكولونيا، وتعطيره برائحة الكافور، ثم خرج ليرى ماذا هناك.

كان خوسيه مونتييل رجلاً حذراً.. ينام في الحر دون أن يشغِّل المروحة الكهربائية، حتى لا يطغى صوتها على أي

صوت يصدر في البيت، وبذلك يتمكن من مراقبة ما يحدث جيداً حتى وهو نائم!

صاحت زوجته:

- خوسيه... تعال أنظر هذا القفص البديع!

فأطل بجسده الضخم من باب غرفة النوم، وهو ما يزال يجفف وجهه ورأسه، وسأل:

- ماذا؟!

فأجابه بلتزار:

- قفص بيبو!

فنظرت إليه المرأة بارتباك وسألته:

- قفص مَنْ؟

فقال بلتزار مؤكداً:

- قفص بيبو..

ثم التفت إلى مونتييل وقال:

- بيبو طلب مني أن أصنعه له.

حتى هذه اللحظة لم يحدث شيء.. ولكن بلتزار شعر كما لو كانوا قد فتحوا له باب السجن.. وخرج مونتييل من غرفة النوم دون أن يكمل ارتداء ملابسه، وصاح:

- بيبو..

وكان بيبو قد عاد لتوه من المدرسة.. كان غلاماً في حوالي الثانية عشرة من عمره، له رموش أمه المعقوفة، وهدوءها المثير للعطف. أمره مونتييل:

- تعال هنا.. هل طلبت منه أن يصنع لك هذا القفص؟

فطأطأ الغلام رأسه، في حين أمسكه مونتييل من شعره ليرغمه على النظر إليه، قائلاً له:

- انطق!

وعضّ الغلام شفته، ولم ينطق بحرف.. فتمتمت الزوجة:

- مونتييل!

فترك مونتييل الغلام، واستدار إلى بلتزار، وقال منفعلاً:

- أنا آسف جداً يا بلتزار.. كان يجب أن ترجع إليَّ أولاً قبل أن تبدأ في صنع هذا القفص... كيف تتفق مع غلام صغير على صنع شيء؟..

- أنا لم أرَ ذلك من قبل!

وبينما كان يخاطبه استعاد وجهه تعبيره الهادئ، ثم رفع القفص من فوق المائدة، دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليه، وناوله بلتزار قائلاً له:

- خذ قفصك وحاول أن تبيعه لشخص آخر.. وأرجوك لا تجادلني.

وربت على كتفه، واستطرد:

- لا تجادلني أو تثير غضبي، لأن الطبيب حذرني من الانفعال.

كان ذلك يحدث والغلام في مكانه لا يتحرك، ولا يطرف له جفن..

وشعر بلتزار بحرج موقفه وهو ممسك بالقفص في يده، لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل؟!

وعند ذلك صدرت من حنجرة الغلام زمجرة كزمجرة الكلب الغاضب، ثم ارتمى على الأرض وهو يصرخ ونظر إليه مونتييل بلا مبالاة، في حين شرعت الأم في ترضية ابنها، ولكن زوجها نهرها قائلاً:

- دعيه.. ليخبط رأسه في الأرض حتى يكسرها، ثم رشّي عليه سكراً وليموناً حتى يكون لغضبه طعم.

ونظر بلتزار إلى الطفل الذي كان على وشك البكاء، وكأنه ينظر إلى حيوان يحتضر بعد أن أصيب بمرض معد.

كانت الساعة حينئذ الرابعة عصراً، وكانت أورسولا في نفس تلك اللحظات تغني أغنية قديمة وهي تعد الطعام في مطبخ بيتها.

قال بلتزار:

- بيبو!

واقترب من الغلام وهو يبتسم، وقدم له القفص، فهب الغلام واقفاً في قفزة واحدة، واحتضن القفص الذي كان في مثل طوله تقريباً، وظل ينظر إلى بلتزار من خلال أسلاكه المعدنية، وهو عاجز عن التعبير، ودون أن يذرف دمعة واحدة.

ونظر مونتييل إلى بلتزار، وقال له ـ بكل هدوء:

- قلت لك خذ القفص

وقالت المرأة للغلام ـ وهي تنظر إليه نظرة آمرة:

- رده إليه

فقال بلتزار:

- احتفظ به يا بيبو!

ثم نظر إلى مونتييل وقال:

- في الحقيقة.. أنا لم أصنعه إلا من أجله!

ثم خرج، وتبعه مونتييل الذي قال له ـ وهو يسد عليه الطريق:

- لا تكن أحمقَ يا بلتزار.. خذ قفصك معك، فلن أدفع لك فيه "سنتافو" واحداً.

فقال بلتزار:

- لا يهم.. لقد صنعته خصيصاً من أجل بيبو.. ولم أكن أنتظر ثمناً له.

شق بلتزار طريقه وسط من جعلهم الفضول يزدحمون في فناء البيت ويسدون عليه باب الخروج.. في حين كان مونتييل يرغي ويزبد في الصالة، وقد امتقع لونه، وبدأ الاحمرار يتسرب إلى عينيه.

صاح في ابنه:

- أنت يا مغفل!.. خذ قفصك واغرب عن وجهي.. لم يكن ينقصنا إلا أن تتلقى حشرة مثلك أوامر في بيتي.. وممن؟!..

- من أغراب.. عليك اللعنة!

وعندما وصل بلتزار إلى صالة "البلياردو" فوجئ بعاصفة من التصفيق من الموجودين بالصالة..

حتى تلك اللحظة كان يظن أن قفصه ليس إلا قفصاً صنعه، وكان أحسن من الأقفاص التي صنعها من قبل.. وأنه أصر على إهدائه لابن خوسيه مونتييل، لكي يمنعه من البكاء.. وأن فعلاً كهذا لا يستحق أن يستوقفه كثيراً.. فقد حدث ما حدث ويجب أن ينساه.. وفقط كان يخامره شعور بالنشوة! ولم يكتشف أن القفص كان يمثل ـ في الساعات القليلة التي رآه فيه الناس ـ حدثاً ذا أهمية كبيرة لديهم!..

قال له أحدهم:

- يبدو أنهم أعطوك خمسين "بيزو" ثمناً للقفص.. صفقة مربحة يا بلتزار.. أليس كذلك؟

فرد عليه بلتزار:

- بل أعطوني ستين!

وقال آخر:

- ما من شخص غيرك يا بلتزار استطاع أن ينتزع من مونتييل مبلغاً كهذا.. هذا أمر جدير بالتسجيل، وجدير بالاحتفال!

ومد يده بكوب من البيرة.. قدمها له على سبيل التحية، فاضطر بلتزار أن يرد على المجاملة بمثلها، فطلب لجميع الحضور بالصالة شراباً على حسابه!

- كانت هذه هي المرة الأولى التي يتناول فيها بلتزار خمراً.. ولذلك لعبت الخمر برأسه بسرعة، فأخذ يهذي ويتحدث عن مشروعه الضخم لصنع ألف قفص: يبيع الواحد منها بستين بيزو.. ثم يصنع مليون قفص يجني من ورائها ستين مليوناً!

قال وقد أعماه السكر:

- أشياء كثيرة يجب أن يصنعها المرء، ليبيعها للأغنياء قبل أن يموتوا.. إنهم جميعاً مرضى ويوشكون على الهلاك.. هم في حال سيئة.. فمن المحظور عليهم - كما علمت - أن يغضبوا أو يستسلموا للانفعال!

وظل الفونوجراف الأوتوماتيكي، على مدى ساعتين، يعزف بلا انقطاع.. وشرب الجميع أكثر من مرة في صحة

بلتـزار، متمـنين لـه موفـور الصـحة والحـظ والثـراء.. كمـا تمنوا الموت لكل الأغنياء.. ثم تركوه وحده بصالة البلياردو وانصرفوا.

وكانت أورسولا تنتظره بالبيت، بعد أن أعدت له طبقاً شهياً من اللحم البارد المغطى بشرائح من البصل.

وعندما تأخر، وقفت على باب البيت، لتستطلع الأمر، فقال لها أحدهم أن زوجها في صالة البليـاردو، وأن السـعادة قد طيّرت عقله، وأنه طلب بيرة لجميع الموجودين بالصـالة، فلم تصدق، لأن بلتزار لم يسبق له أن شـرب وسـكر. وحين آوت إلى فراشـها قـرب منتصـف الليـل، كـان بلتـزار مـازال جالسـاً في صـالة البليـاردو، علـى مائـدة وحـده، أمـام حلبـة رقــص في الهــواء الطلــق، كانــت تمــر مــن فوقهــا طيــور الكروان.

كـان وجـه بلتـزار ملطخـاً بـأحمر الشـفاه، وحـاول أن يمشي، ولكنـه لم يتمكـن مـن نقـل قدميـه خطـوة واحـدة.. كـان قـد أنفـق في صـالة البليـاردو كـل مـا معـه مـن مـال، واضــطر أن يــترك ســاعته كــرهن، إلى أن يــدفع بــاقي الحساب في اليوم التالي. بعدها بلحظات ارتمى على الأرض

في عرض الشارع، مباعداً ما بين رجليه، وتنبّه وهو على تلك الحال إلى أن أحدهم يخلع حذاءه من قدميه، ولكنه لم يرد أن يفيق من حلم.. كان أسعد حلم في حياته ولم تجرؤ النسوة اللاتي مررن به في الصباح الباكر، وهن في طريقهن إلى الكنيسة لحضور قداس الساعة الخامسة، على النظر إليه، لأنهن اعتقدن أنه ميت.

إريندير البريئة

كانت إريندیرا تحمم جدتها حين بدأت رياح محنتها تهب عاصفة، وسرت زلزلة خفيفة في الدار الفسيحة المبنية بالخرسانة المسلحة، والتائهة في عزلة الصحراء؛ فهزت أركان الدار وقواعدها مع أول هجمة.

لكن إريندیرا وجدتها كانتا قد اعتادتا تلك المخاطر الطبيعية هناك، فلم تكترثا بالرياح التي شعرا بوجودها وهما في الحمام المزخرف بفسيفساء منقوش عليها سلاسل من الطواويس، جعلته شبيها بالحمامات الرومانية القديمة.

بدت الجدة العارية البدينة في حوض الاستحمام المصنوع من المرمر، وكأنها حوت أبيض بديع. وكانت الحفيدة قد بلغت لتوها الرابعة عشرة من عمرها، وتبدو واهنة، هشة العظام، وأكثر خنوعاً مما يتناسب مع أعوامها الأربعة عشر.

راحت تصب على جدتها الماء في اقتصاد توشيه صرامة قدسية للماء الذي غُليت فيه أعشاب مطهرة وأوراق أشجار عطرية.

فانساب الماء المعطر على الجسد الأبيض، وتشبث بالظهر الريان والشعر المنسدل المعدني اللون، والكتفين القويين اللذين وشما بلا رحمة على نحو يخجل معه البحارة من عجزهم عن تحمل قسوة الوشم.

قالت الجدة:

- أتوقع وصول رسالة.. رأيت ذلك في الحلم ليلة الأمس!

فقالت إرينديرا ـ التي لا تتحدث أبداً إلا حينما يستحيل تجنب الحديث:

- وأي يوم عشته في الحلم؟
- الخميس..
- إذن فقد كانت رسالة تحمل أخباراً سيئة... لن تصل على أية حال!

وحين فرغت الجدة من استحمامها، ساعدتها إرينديرا حتى وصلت إلى غرفة نومها. كانت الجدة بدينة إلى الدرجة التي تجعلها غير قادرة على السير إلا مستندة على كتف حفيدتها أو متكئة على عصا تشبه عصا أحد الأساقفة، ولكن حتى خلال أكثر جهودها تعذراً، والتي تبدو فيها

غير واهنة ومتعثرة، كانت قوتها القديمة وعافيتها تبدو واضحة!

في غرفة نومها التي أثثت بذوق يجمع ما بين الإسراف والجنون - شأن الدار كلها، اقتضى الأمر ساعتين كاملتين كي تزيّن إريندیرا جدتها. إذ كان عليها أن تمشط شعرها خصلة خصلة، بعد أن حلت جدائله وعطرته، ثم تلبسها رداءها المزخرف بزهور استوائية، ثم ترش البودرة على وجهها، وتصبغ شفتيها بأحمر شفاه فاقع الحمرة، وتضع الحمرة على خديها، وتمسح تحت جفونها بعبير المسك، وتطلى أظافرها بطلاء عرق اللؤلؤ.

حينما أتمت إريندیرا ذلك، وبدت الجدة كعروس منفوشة، تفوق حجمها الطبعي، مضت بها إلى حديقة صناعية، ذات زهور خانقة، شبيهة بالزهور المرسومة على ردائها، وأجلستها في مقعد ضخم له قواعد وجوانب تجعله شبيهاً بعرش ملكي، ثم تركتها تستمع لإسطوانات غائمة الصوت، تنبعث نغماتها من جرامفون عتيق.

وبينما كانت الجدة تسبح في مستنقعات ذكرى الماضي، عكفت إريندیرا على كنس وتنظيف الدار التي

بدت معتمة ومتنافرة، تحفل بأثاث غريب وتماثيل لقياصرة من نسج الخيال، وأخرى لملائكة من الرخام، وثريّات تتدلى منها قطع بللورية كالأقراط، وبيانو ذهبي اللون، بالإضافة إلى كثير من الساعات المعلقة على الحوائط، ذات أحجام وأشكال لا تخطر على بال.

وكان هناك في الفناء خزان للمياه، كان الهنود قد حملوه على كواهلهم منذ سنوات بعيدة من منطقة ينابيع نائية. وكانت هناك نعامة متهالكة مربوطة بحبل مشدودة إلى أحد أعمدة الخزان. كانت هي المخلوق الوحيد ذو الريش الذي يمكن أن يحتمل عذاب ذلك الطقس الشديد الحرارة.

كانت الدار بعيدة عن كل شيء، في قلب الصحراء، لايوجد بالقرب منها إلا مستوطنة ذات شوارع بائسة متقدة من شدة الحرارة، تنتحر فيها الماعز بسبب وحدتها وقنوطها، حين تهب عليها رياح التعاسة.

وقد أقيم صرح هذا الملاذ الذي يستعصي على الأفهام، على يد زوج الجدة، الذي كان مهراً اسطورياً يدعى أماديس. وكانت قد أنجبت له ابناً، كان يدعى هو الآخر

أماديس.. وهو والد إريندبرا. ولم يُقدَّر لأحد أن يحيط علماً لا بأصول تلك الأسرة، ولا بدوافع سلوكها، وتقول أشهر الحكايات المتداولة بين الهنود أن أماديس الأب كان قد انتشل زوجته الجميلة من دار للبغاء في جزر الأنتيل، بعدما أودى بحياة رجل في مشاجرة بالسكاكين، ونقلها من هناك ليغرسها إلى الأبد في حصانة الصحراء، وحينما مات أماديس الأب وأماديس الابن: أحدهما وهو يرتعش من حمى سوداء أصابته، والآخر إثر تخريم بدنه بطلقات الرصاص في قتال نشب حول امرأة، دفنت الجدة جثتيهما في فناء الدار، وطردت الخادمات ا لأربع عشرة الحافيات، وواصلت اجترار أحلام عظمتها في ظلال الدار المختلة وذلك بفضل تضحيات حفيدتها غير الشرعية التي ربّتها منذ ميلادها.

اقتضى الأمر من إريندبرا أن تنفق ست ساعات لمجرد ضبط وملء الساعات الكثيرة التي تكتظ بها جدران البيت وأركانه. وفي اليوم الذي هبت فيه رياح تعاستها، لتبدأ رحلة طويلة من العذاب والشقاء، لم تضطر للقيام بذلك، لأن تلك الساعات كانت قد أديرت مفاتيح ملئها بما يكفي لعملها بانتظام حتى صباح اليوم التالي، غير أنها

كانت قد أرغمت على أن تحمم جدتها وتزينها ، ثم تكنس أرض الدار وتعيد ترتيب الأشياء بها ، وتطهو طعام الغداء ، وتلمع البللور الثمين.

وفي حوالي السابعة ، وبينما كانت تغير الماء في الوعاء الذي تشرب منه النعامة ، وتروي الأعشاب الصحراوية النامية حول القبرين المتماثلين اللذين يرقد بهما كلٌ من أماديس الأب وأماديس الابن. كان عليها أن تصارع غضب الرياح الذي أصبح لا يحتمل، دون أن ينتابها أي هاجس بأنها رياح تعاستها ومحنتها الطويلة.

كانت تجفف آخر كؤوس الشمبانيا ، بعد أن غسلتها ، حينما شمت رائحة الحساء المنبعثة من المطبخ، فاضطرت لاجترار معجزة العدو إلى هناك، دون أن تخلّف وراءها كارثة تحطم البللور البندقي.

وأفلحت في رفع الإناء من فوق الموقد ، قبل أن يفور الحساء وينسكب على الأرض، ثم جلست على مقعد عال في المطبخ لتنال قسطاً من الراحة ، أغمضت عينيها وفتحتهما من جديد ، وقد اكتست ملامحها بتعبير لا يعرف

التعب. ثم شرعت في صب الحساء في السلطانية، كانت عاكفة على العمل في غمار غفوتها.

وكانت الجدة قد جلست على رأس مائدة يتوسطها طاقم شمعدانات فضية، تتسع لاثني عشر شخصاً، هزت جرسها الصغير، فوصلت إرينديرا في الحال، حاملة السلطانية التي يتصاعد منها البخار.

وبينما كانت تضع الحساء في الصحن أمام الجدة، لاحظت الأخيرة مظهر الذي يسير وهو نائم يكسو ملامحها، فمررت يديها أمام عينيها، كما لو كانت تجفف لوحاً زجاجياً، فلم تر الفتاة اليد، فتابعتها الجدة بنظراتها، وحين التفتت لتعود من حيث أتت، صاحت:

- إرينديرا!

فأسقطت الفتاة السلطانية على السجادة المفروشة بالغرفة بسبب إيقاظها فجأة.

فقالت لها الجدة برقة تحمل نغمة التأكيد:

- لا تخافي يا طفلتي، لقد انتابك النعاس مرة أخرى وأنت تسيرين.

فقالت إرينديرا بلهجة المعتذر:

- لقد اعتدت على ذلك.

ثم التقطت السلطانية من فوق السجادة، في حين كان غمام النعاس مازال يلفها، وحاولت تنظيف البقعة التي تلوثت من السجادة، فمنعتها الجدة من ذلك قائلة:

- اتركيها الآن.. بإمكانك غسلها في الأصيل.

وهكذا تعين على إريناديرا بالإضافة إلى مهام الأصيل المعتادة، أن تقوم بغسل السجادة. فانتهزتها فرصة لإنجاز غسيل يوم الإثنين إلى جانب غسل السجادة، وذلك حين كانت الرياح تدور وتلف حول الدار باحثة عن منفذ للتسرب منه.

كان لديها الكثير مما يتوجب عليها القيام به، حتى أن الليل أقبل دون أن تدركه، وحينما أعادت سجادة غرفة الطعام إلى موضعها كان الوقت قد حان لتأوي إلى الفراش.

وأمضت الجدة أصيل اليوم بأكمله وهي جالسة أمام البيانو تشدو بصوت متكلف عالي النبرة، بعض أغنيات شبابها الذي ولىَّ، وقد تلطخت جفونها وخدودها بلطخات من العنبر والدموع.

وحين رقدت في فراشها، مرتدية قميص نومها القطني الرقيق عاودتها من جديد ذكرياتها الأثيرة بكل مرارتها.

قالت ـ موجهة خطابها إلى إريнديرا:

- انتهزي الفرصة غداً لتغسلي سجادة غرفة المعيشة أيضاً، لأنها لم ترَ الشمس منذ أيام الضجيج.

فردت الفتاة:

- نعم يا جدتي.. سأفعل!

ثم التقطت مروحة من الريش، وراحت تهوي على العجوز الغبية، التي كانت مستمرة في إلقاء قائمة الأوامر الليلية على حفيدتها، بينما كانت تغوص في أحلام نومها.

قالت:

- عليك أن تكوي الملابس كلها قبل أن ترقدي، لتنامي بضمير مستريح.

- نعم يا جدتي!

- وعليك أن تفحصي جيداً خزائن الثياب، لأن "العتة" تزداد شراهة في الليالي التي لا تسكن فيها الرياح.

- نعم يا جدتي!

- وحينما تخرجين إلى الفناء، خذي الزهور لتهوّيها!

- نعم يا جدتي!

- ولا تنسي أن تضعي طعاماً للنعامة!

كانت قد راحت في النوم، لكنها كانت مستمرة في إصدار الأوامر وإلقاء التعليمات لحفيدتها. وفي الواقع فإنها هي التي أورثت إريندرا القدرة على الاستمرار في اليقظة والانتباه برغم غفوتها.

غادرت إريندرا الغرفة دون أن تحدث ضجيجاً، ثم عكفت على أداء المهام الليلية الأخيرة، وهي لاتزال ترد على أوامر جدتها التي كانت قد استغرقت في النوم بالفعل.

- رشي بعض الماء على القبور!

- نعم يا جدتي.

- وإذا جاء أماديس الأب أو الابن، فأبلغيهما ألا يدخلا الدار ويهربا لأن عصابة "بورفيريوجالان" تتعقبهما لتقتلهما.

وكفّت إريnديرا عن الرد لأنها كانت تعلم بأن جدتها قد راحت في سابع نومة برغم استمرارها في هذيانها، لكنها حرصت على أن تنفذ جميع ما تلقته من أوامر.

وعندما فرغت من التأكد من إغلاق جميع نوافذ الدار، أطفأت آخر الشموع المضاءة، ثم تناولت شمعداناً من فوق مائدة غرفة الطعام، لينير لها الطريق وهي ذاهبة لتنام، فيما كانت فترات السكون التي تخللت ضجيج الرياح، تمتلئ بالأنفاس الهادئة لجدتها الغارقة في نومها.

كانت غرفة نوم إريnديرا مزودة بأسباب البهجة والتسلية لكنها بالطبع كانت لا تضاهي غرفة نوم جدتها. إذ تراكمت فيها أكوام من الدمى البالية والحيوانات الزنبركية، بقيت لها من أيام طفولتها التي مازالت قريبة العهد بها.

ناءت تحت عبء مهام النهار الشاقة التي قامت بها، فلم تكن لديها قدرة على نزع أو استبدال ثيابها قبل أن ترقد في الفراش، وكانت قد وضعت الشمعدان على منضدة صغيرة دون أن تطفئ شمعته المشتعلة.

بعد لحظة من غفوتها، تسللت رياح محنتها إلى مخدعها، مثل فصيل من كلاب الصيد، وأسقطت الشمعدان على الأرض بالقرب من الستارة المعلقة على الجدار.

وحين هدأت الرياح أخيراً، عند الفجر، أطفأت قطرات غليظة ومتناثرة من المطر، آخر الجمرات المشتعلة، وجمّدت رماد الدار الذي راح ينفث دخاناً مكتوماً.

حاول الناس في القرية، ومعظمهم من الهنود، إنقاذ بقايا الكارثة: جثة النعامة المتفحمة، إطار البيانو المذهّب، أحد التماثيل المرمرية.

فيما راحت الجدة تتأمل مربع فرحها وسعادتها في كآبة من الصعب سبر أغوارها.

وكانت إرينديرا تجلس بين قبري أماديس الابن وأماديس الأب، وقد كفّت عن البكاء، بعدما اقتنعت الجدة بأن أشياء قليلة جداً، كانت وسط الحطام، هي التي لم يمسها الدمار.

رمقت حفيدتها بنظرة إشفاق صادق، ثم تنهدت وقالت:

- يا طفلتي المسكينة.. لا أعتقد أن عمرك سيكون طويلاً بما فيه الكفاية لتدفعي لي تعويضاً عن هذه الكارثة!

وقد بدأت إريندیرا بالفعل في دفع التعويض في ذلك اليوم نفسه، تحت وقع انهمار المطر، حين حُملت إلى بائع لحوم القرية، وهو رجل نحيف، كان قد ترمل مبكراً، اشتهر عبر الصحراء الممتدة بالمقابل السخي الذي يدفعه لنيل عذرية الفتيات.

وفيما كانت الجدة تنتظر، دون أن يردعها رادع أو تخالجها أية اهتزازة ضمير، راح الأرمل يفحص إريندیرا بتجرد الخبير، فكشف عن فخذيها وتحري مدى قوتهما، ثم جس نهديها ليعرف حجميهما، ثم قاس محيط عجيزتها، ولم ينطق بكلمة إلا بعد أن قدّر ما تساويه، وعندئذٍ قال:

- إنها لاتزال جافة تماماً.. وحلمتاها تشبهان حلمتي كلبة.

ثم رفعها إلى ميزان ليؤكد صحة استنتاجه بالأرقام، فوجد وزنها تسعين رطلاً.

فقال:

- إنها لا تساوي أكثر من مائة بيزو!

فروعت الجدة، وأوشك صوتها أن يبلغ درجة الصياح وهي تقول:

- مائة بيزو في مقابل فتاة لم يمسسها بشر!.. لا يا سيدي، إن هذا يفضح افتقارك لاحترام الفضيلة!

فقال الأرمل:

- لنقل مائة وخمسين!

فقالت الجدة:

- لقد كبّدتني هذه الفتاة أضراراً تبلغ ما يزيد عن المليون بيزو، وحسب هذا التقدير ستحتاج إلى قرنين من الزمان لتدفع التعويض الذي يلزمني.

فقال الأرمل:

- من حسن حظك أن الميزة الوحيدة الحسنة التي تتمتع بها هي صباها.

راحت الرياح العاصفة تصفع الدار، وكان السقف يمتلئ بالكثير من الثقوب، حتى أن المطر المنهمر داخل

الدار كان يعادل ما ينهمر خارجه. وأحسست الجدة بأنها وحيدة في عالم حافل بالكوارث والمصائب.

- قالت:
- اجعل المبلغ ثلاثمائة!
- لا أستطيع.. كثير!
- مائتان وخمسون إذن!

وتم الاتفاق أخيراًعلى مائتين وعشرين بيزو ونقداً وعداً ،بالإضافة إلى بعض اللحم ومؤن المعيشة.

وأومأت الجدة إلى إرينديرا لتمضي مع الأرمل، فاقتادها من يدها إلى غرفة خلفية بالدار، كما لو كان يمضي بها إلى المدرسة، في حين قالت الجدة:

- سأنتظرك هنا.

فقالت إرينديرا:

- نعم يا جدتي!

كانت الغرفة الخلفية عبارة عن سقف من سعف النخيل الجاف يرتفع على أربعة أعمدة وجدران من الطوب اللبن، بارتفاع ثلاثة أقدام، تتخلله ثقوب وشقوق كثيرة، وعلى الجدران كانت تتدلى أوعية فخارية تحوي صباراً

ونباتات أخرى من نباتات الصحراء، وبين عمودين من الأعمدة الأربعة الداعمة للسقف، كانت تتدلى أرجوحة شبكية للنوم كالحة اللون، تهتز كأنها شراع مركب يخفق بفعل العاصفة، فوق سطح البحر.

لدى المحاولة الأولى من جانب الأرمل، صرخت إريندريا صراخاً خافتاً، وربما همست بشيء غير واضح، وهي تحاول الابتعاد ودون أن يصدر عن الأرمل أي صوت، لوى ذراعها، وجرّها إلى أرجوحة النوم الشبكية، فخمشت وجهه بأظافرها وهي تدفعه عنها، وصرخت من جديد في رحاب الصمت الطاغي. لكنه رد عليها بصفعة قوية صارمة رفعتها عن الأرض، وطيرتها في الهواء لحظة، بشعرها الطويل، المنساب في الفراغ.

وقبل أن تلمس الأرض ثانية، كان قد أمسك بخصرها في إحكام، ثم ألقاها بدفعة وحشية في الأرجوحة، وكبلها بركبتيه.

عندئذ استكانت مذعورة، وغاب عنها وعيها، وظلت كما لو كانت قد فتنتها أشعة القمر المنعكسة على سطح سمكة تطفو في الهواء العاصف، فيما كان الأرمل ينزع

عنها ثيابها، ممزقاً إياها بحركة جذب منتظمة، كما لو كان يقتلع عشباً من الأرض، مبعثراً إياها في كافة أرجاء المكان، بجذبات كونية هائلة، فتطير في الهواء، وترفرف كأعلام خفّاقة.

عندما لم يعد هناك بالقرية رجل آخر يمكنه أن يدفع أي شيء مقابل مطارحة إريندرا الغرام، وضعتها جدتها فوق شاحنة ومضت معها إلى حيث يقيم المهرّبون.

قامتا بالرحلة على ظهر الشاحنة في العراء وسط أجولة الأرز وجرار دهن الخنزير حاملتين معهما ما أبقت عليه نيران الحريق: لوحة تمثل مخدعاً على غرار مخدع نائب الملك، تمثال لملاك محارب، عرش محترق، وأشياء أخرى ما لا نفع فيه، بالإضافة إلى الصندوق المرسوم عليه صليبان عريضان، والذي يحمل عظام أماديس الأب وأماديس الابن.

احتمت الجدة من الشمس بمظلة مهترئة، وقد تعذر عليها التنفس بسبب العذاب الذي تعانيه من العرق والغبار، لكنها كانت في ظل ذلك الوضع البائس رابطة الجأش.

وخلف كومة الأشياء المحمولة فوق الشاحنة، دفعت إرينديرا تكلفة الرحلة وأجرة النقل لمساعد السائق، بمضاجعته مقابل عشرين بيزو للمضاجعة الواحدة.

كان الأسلوب الذي تلجأ إليه إرينديرا للدفاع في البداية، هو نفسه الذي استخدمته لصد هجوم الأرمل، لكن أسلوب مساعد السائق كان مختلفاً، وئيداً ومتعقلاً، فانتهى به الأمر إلى ترويضها بالرقة واللين.

وعندما بلغوا أول بلدة بالطريق، عقب رحلة طويلة قاتلة، كانت إرينديرا ومساعد السائق يستريحان من مضاجعة طيبة خلف حاجز الأشياء المكوّمة فوق الشاحنة.

صاح السائق:

- ها هنا يبدأ العالم!

ورمقت الجدة عاجزة عن التصديق، الشوارع الموحشة الغارقة في العزلة لبلدة أكبر قليلاً من تلك التي غادرتها، وإن كانت تحاكيها في البؤس.

قالت:

- لا يبدو لي الأمر كذلك.

فقال السائق:

- إن بها بعثة تبشيرية.

فردت عليه:

- لا تعنيني الأعمال التبشيرية أو الخيرية، وإنما يعنيني المهربون.

دست إرينديرا اصبعها في أحد أجولة الأرز، وهي تصغي إلى الحوار الدائر بين جدتها والسائق، من مكانها فوق الشاحنة، فعثرت على خيط، جذبته، ليقع في يدها قلادة من اللؤلؤ الحقيقي. حدّقت فيها مذهولة، وقد أمسكتها بين أصابعها كحية ميتة.

قال السائق:

- لا تراودنك يا سيدتي أحلام اليقظة، فليس هناك مهربون.

فقالت الجدة:

- طبعاً.. أصدقك!

ثم قال السائق مازحاً:

- حاولي أن تعثري على واحد منهم، وستكتشفين بنفسك حقيقة الأمر، فالجميع يتحدث عنهم، لكن ما من أحد منهم رأى مهرباً واحداً.

لمح مساعد السائق إرينديرا وهي تستل القلادة من جوال الأرز، فانتزعها منها بسرعة، وأعادها إلى مكانها.

في تلك اللحظة نادت الجدة إرينديرا ـ بعدما قررت أن تمكث في تلك البلدة على الرغم من بؤسها الظاهر ـ لتساعدها في النزول من فوق الشاحنة فأسرعت إليها إرينديرا بعدما ودّعت مساعد السائق بقبلة متعجلة وإن كانت عفوية وصادقة.

جلست الجدة على عرشها في منتصف الشارع المقفر تنتظر إنزال أشيائها من فوق الشاحنة، والتي كان آخرها الصندوق الذي يضم رفاة أماديس الأب وأماديس الابن.

قال السائق مبتسماً:

- لهذا الشيء ثقل جثة.

فقالت الجدة:

- بل جثمان.. وأرجو أن تعاملهما بالإجلال الذي تستحقانه!

فضحك السائق وقال:

- أراهن أنهما تمثالان من المرمر.

وبلا اكتراث، وضع صندوق الرفاة على الأرض، وسط بقايا الأثاث الذي أنقذ من الحريق، ومدّ كفاً مفتوحة إلى الجدة وهو يقول:

- خمسون بيزو!

- لقد دفعناها لمساعدك!

فتطلع السائق إلى مساعده في دهشة، فأومأ إليه المساعد بنظرة تعني الموافقة على ما قالته، فعاد السائق وجلس خلف عجلة القيادة، حيث كانت تجلس إلى جانبه امرأة متشحة بالسواد، وبين ذراعيها طفل يبكي من الحر.

وقبل أن تتحرك الشاحنة، قال مساعد السائق للجدة، وكله ثقة بنفسه:

- سآخذ إرينديرا معي، إن كنت توافقين... ومقصدي شريف، فتدخلت إرينديرا وقالت:

- أنا لم أقل شيئاً!

ونظرت إليه الجدة من اعلى إلى أسفل، لا لتجعله يستشعر الضآلة، أو لتهز ثقته بنفسه، ولكن في محاولة لقياس مدى قوته وجديته، ثم قالت له:

- لا اعتراض لديّ إن عوضتني عما خسرته من وراء إهمالها: ثمانمائة واثنان وسبعون ألفاً وثلاثمائة وخمسون بيزو، نخصم منها أربعمائة وعشرين بيزو دفعتها لي، فيصبح الباقي المطلوب ثمانمائة وواحداً وسبعين ألفاً وتسعمائة وثلاثين بيزو.

وعندما بدأت الشاحنة في التحرك قال مساعد السائق ـ بلهجة جادة:

- صدقيني كنت سأعطيك كومة من النقود لو أنني أمتلكها.. فالفتاة تساويها.

وداخل السرور الجدة، فقالت بلهجة المتعاطف:

- إذن عد حينما تكون لديك النقود يا ولدي، أما الآن، فمن الخير أن تذهب لأننا لو أعدنا الحسابات مرة ثانية، فربما أصبح أنا المدينة لك!

تعلق مساعد السائق بمؤخرة الشاحنة التي كانت قد تحركت بالفعل، ومن فوقها لوّح مودعاً إريندبرا، التي كانت في تلك اللحظات ما تزال غارقة في رحاب دهشتها، حتى أنها لم ترد تحيته.

في البقعة الغائبة التي تركتهما الشاحنة فيها ، صنعت الجدة وحفيدتها مأوى يعيشان فيه من ألواح الصفيح وبقايا السجاجيد الشرقية ، ثم وضعا حشيتين على الأرض، واستلقيا عليهما ، وراحا في نوم هادئ ، كأنهما في دار رحبة ، إلى أن نفذت أشعة الشمس من ثقوب السقف، ولسعت وجهيهما.

على العكس مما كان يحدث عادة ، عكفت الجدة في ذلك الصباح على إصلاح حال إرينديرا ، فزينت وجهها على غرار ما تزين وجوه الموتى قبل دفنهم، بالأسلوب الذي كان شائعاً أيام شبابها ، وطلت أظافرها بطلاء أظافر أحمر فاقع، وكللتها بتاج من نسيج قطني رقيق بدا على رأسها مثل الفراشة.

أقرت بالحقيقة ، وقالت:

- تبدين فظيعة المنظر.. لكن على أية حال، فالأمر هكذا أفضل، فالرجال بلهاء تماماً فيما يتعلق بالأمور النسائية!

وقبل أن ترياهما بفترة ليست قصيرة ، تبينتا صوت بغلين يمضيان عبر الأرض الصحراوية القاسية.

وبأمر من جدتها رقدت إريندیرا على الحشية المفرودة على الأرض، على النحو الذي قد تفعله إحدى الممثلات الهاويات في أحد مشاهد الإغراء الجنسي، في اللحظة التي يوشك فيها ستار المسرح أن ينفتح وخرجت الجدة من المأوى، وهي تستند على صولجان الأسقف الذي تؤثره ولا تستغني عنه، وجلست على عرشها في انتظار مرور البغلين.

أقبل ساعي البريد.. لم يكن عمره يتجاوز العشرين عاماً، لكن عمله جعله يبدو أكبر من ذلك.

كان يرتدي زياً رسمياً أصفر اللون، ويلف ساقيه بأربطة طويلة، ويضع على رأسه قبعة من القش، ويعلق في وسط حزام ذخيرته مسدساً.

كان يمتطي أحد البغلين، بينما يسحب البغل الآخر خلفه، وقد تكومت فوق ظهره أكياس البريد ذات النسيج المتين.

حيا الجدة أثناء مروره عليها ، ثم واصل مسيره، فنادته وأشارت إليه لينظر بداخل المأوى، فتوقف الرجل ونظر، فشاهد إريندیرا التي كانت مضطجعة على الحشية في زينتها الجنائزية، وقد ارتدت ثوباً ذا ثنيات أرجوانية.

ثم سألته الجدة:

- أيروق لك الأمر؟

حتى لحظة هذا السؤال، لم يكن ساعي البريد قد أدرك حقيقة الأمر، لذلك قال مبتسماً:

- لا يبدو الأمر سيئاً لامرئ كان يلتزم العفة.

فقالت الجدة:

- خمسون بيزو

فقال:

- تطلبين مبلغاً كبيراً، يمكنني أن أقتات به شهراً.

- لا تكن بخيلا، فالبريد يدفع لك أكثر مما لو كنت قساً.

- أنا مجرد ساعي بريد محلي، أما ساعي البريد الذي تقصدينه فهو ساعي بريد المنطقة الذي يتنقل في شاحنة صغيرة، وليس على بغل.

فقالت الجدة:

- الحب على أية حال له مثل أهمية الأكل والشرب.

- لكنه لا يغذيك!

أدركت الجدة أن الرجل الذي يحيا مما ينتظره من الآخرين، لديه من الوقت ما يكفي للمساومة. فسألته:

- كم معك؟

فنزل ساعي البريد عن بغلته، وأخرج من حافظة نقوده البالية بعض الأوراق النقدية، فانتزعتها الجدة من يده بسرعة وقالت:

- من أجلك سأخفِّض الثمن، على شرط أن تذيع النبأ في كل مكان تصل إليه.

فقال:

- سأذيعه على امتداد هذا الطريق، وحتى الجانب الآخر من العالم.. فهذا ما خلقني الله من أجله.

نزعت إرينديرا - التي كانت عاجزة عن أن تطرف بعينيها - أهدابها الصناعية، وانتقلت إلى جانب الحشية لتفسح مجالاً لرفيق الصدفة، الذي ما أن دخل المأوى حتى شدت الستارة الموضوعة على مدخله لتحجب رؤية ما يدور بداخله.

وكانت تلك صفقة فعالة ومربحة، فقد أقبل الرجال الذين خلبت لبهم كلمات ساعي البريد، من مسافات بعيدة، ليتعرفوا على طزاجة إريندير ا ، وخلفهم جاءت موائد القمار، وأكشاك بيع السندوتشات، ووراء هذا كله جاء مصور فوتوجرافي على دراجته، ونصب بالقرب من المكان آلة تصوير ذات ستارة سوداء وحامل ثلاثي، وثبّت وراءها منظراً طبيعياً لبحيرة يسبح بها عدد لا حصر له من البجع.

بدت الجدة وهي جالسة على عرشها، وتمسك بمروحة في يدها وتهزها علها تجلب بعضاً من الهواء الذي يخفف من إحساسها بالاختناق نتيجة للحر ا لشديد، غريبة عن السوق الذي خلفته والبضاعة التي تمتلكها!.. فكان كل ما يعنيها هو الحفاظ على انتظام طابور الزبائن المنتظرين دورهم في المضاجعة، وعد مقدار ما دفعوه من نقود على وجه الدقة ليدخلوا المأوى، حيث تنتظرهم إريندير ا.

كانت في البداية بالغة التدقيق، إلى حد أنها رفضت زبوناً تبدو على ملامحه الطيبة، لأن نقوده كانت تنقصها خمسة بيزوات.

ولكن مع مضي الأيام والشهور اكتسبت خبرة واقعية، وانتهى بها الأمر إلى قبول الزبون الذي يستكمل المبلغ المطلوب بالأيقونات أو التذكارات العائلية أو خواتم الزواج أو أي شيء آخر تختبره بأسنانها لتتأكد من أنه ذهب أصلي، وليس مزيفاً.

بعد أن أقامت طويلاً في تلك البلدة، تراكم لدى الجدة ما يكفي من النقود لشراء حمار تتنقل عليه، بعدها راحت تجول في الصحراء بحثاً عن أماكن أخرى أكثر رخاء تتيح لها الحصول على الدين الملتزمة بسداده إريندير.

فسافرت محمولة على محفة يحملها الحمار، وإلى جانبها كانت تسير إريندير وهي تمسك بمظلة مهترئة تظلل بها جدتها لتحميها من الشمس الموغلة في الجمود، وخلفها كان يسير أربعة من الهنود يحملون بقايا أثاث الدار التي احترقت: مراتب النوم، العرش الذي تم إصلاح أرجله المفككة، الملاك المحارب المصنوع من المرمر، الصندوق الذي يضم رفاة كلٍ من أماديس الأب وأماديس الابن. وعلى مسافة غير كبيرة من هذا الموكب كان المصور يتبعهم،

دون أن ينضم إليهم، أو يقترب كثيراً منهم، وكأنه ذاهب ليشهد مهرجاناً آخر في مكان ما!

وكانت ستة أشهر كاملة قد انقضت منذ شب الحريق، حينما تصورت الجدة كيفية العمل على نحو دائم وأفضل.

قالت لإريندريرا:

- إذا سارت الأمور على هذا النحو، فستردين لي دينك في غضون ثماني سنوات وسبعة شهور وأحد عشر يوماً.

وراحت تعيد حساباتها، وهي مغمضة العينين، وتلمس بأصابعها بذوراً استخرجتها من محفظة نقودها، وصححت ما أخطأت فيه قائلة:

- هذا غير حساب أجر وتكاليف معيشة الهنود وغيرها من المصروفات الأخرى.

لم تنطق إريندريرا التي كانت تساير الحمار في خطاه، وهي منحنية تحت وطأة الحر والغبار، بكلمة لوم أو اعتراض على ما قالته جدتها، ولكنها فقط اضطرت إلى كبح جماح دموعها التي ترقرقت من عينيها، ثم قالت:

- أشعر بمسحوق زجاجي يفري عظامي!
- حاولي أن تنامي.
- نعم يا جدتي.

وأغمضت عينيها بعد أن ملأت رئتيها بالهواء الحارق، وواصلت المسير وهي نائمة.

ظهرت على البعد شاحنة صغيرة، تحمل أقفاصاً بها طيور، أفزع صوت محركها الماعز الغارق في غبرة الأفق، وكانت أصوات الطيور تحاكي رشاش ماء بارد أعد للإفاقة من خدر يوم الأحد في (سان ميجل ريل ديزيرتو).

كان يقود الشاحنة مزارع هولندي بدين، مزّق التجوال وجهه، له شارب سنجابي ورثه عن أجداده الأوائل أما ولده أوليسيس، الذي كان راكباً إلى جواره، فقد كان مراهقاً، ذا شعر ذهبي، وعينين في لون البحر، تفيضان بالوحدة، ويبدو بسماته كأنه ملاك اختطف من جنته.

لاحظ الهولندي خيمة منصوبة، يجلس حولها كل جنود الحامية المحلية.

كانوا يجلسون على الأرض، ويتداولون فيما بينهم زجاجة خمر، يشرب كل واحد منهم جرعة منها، ثم يناولها لزميله.

وكانوا يضعون فوق رؤوسهم أفرع اللوز، كأنهم يموِّهون أنفسهم استعداداً لخوض معركة.

تساءل الهولندي:

ما الذي يمكن أن يبيعوه هناك بحق الشيطان؟

فرد عليه ولده بلهجة طبيعية تماماً:

- امرأة.. اسمها إريnديرا!

- وكيف عرفت؟

- الجميع في الصحراء يعرفون!

توقف الهولندي بشاحنته أمام الفندق الصغير بالبلدة، ونزل منها، بينما ظل ولده جالساً بالشاحنة.

وبأصابع خفيفة الحركة لمس حقيبة صغيرة تركها أبوه على المقعد، والتقط رزمة من الأوراق المالية، دسّ جزءاً منها في جيبه، ثم أعاد كل شيء إلى ما كان عليه تماماً.

في تلك الليلة، وبينما كان صوت شخير أبيه يرتفع، إنسلّ الابن من نافذة الغرفة بالفندق، ومضى ليقف في الطابور الطويل، الممتد أمام خيمة إريندير ا.

كانت المعركة في أوجها، وكان القصف على أشده، كما كان المجندون السكارى يراقصون بعضهم بعضاً، حتى لا يبددوا الموسيقى المجانية عبثاً، وكان المصور يعيش أكثر أيامه نشاطاً وازدحاماً بالعمل، فراح يلتقط صوراً ليلية باستخدام أوراق الماغنسيوم الحساسة.

وأثناء إشرافها على سير العمل، راحت الجدة تحصي الأوراق النقدية المتجمعة في حجرها، ثم تقسمها إلى أقسام متساوية، قبل أن تضعها داخل محفظتها.

كان هناك إثنا عشر جندياً فقط في ذلك الوقت، لكن الطابور كان طويلاً ومزدحماً بالزبائن المدنيين، وكان أوليسيس آخرهم.

وحل الدور على جندي قبيح وبائس المظهر. لم تسد الجدة الطريق في وجهه فحسب، وإنما حرصت على ألا تمس بيدها نقوده.

قالت له - في حين كان يلح عليها:

- لا يا ولدي.. لن تستطيع الدخول حتى لو دفعت ذهب العالم كله.

إنك تجلب الحظ السيئ!

وأصابت الحيرة الجندي المسكين، الذي جاء من مكان بعيد، فتساءل:

- ماذا تعنين؟!

فقالت الجدة:

- إنك تجلب الأشباح الشريرة، وما على المرء إلا أن ينظر إلى وجهك ليدرك ذلك.

ولوّحت بيدها وهي تصرفه من أمامها، ولكن دون أن تمسَّه، ثم أفسحت الطريق للجندي التالي، قائلة:

- ادخل أيها الوسيم، لكن لا تمكث طويلاً، فبلادك بحاجة إليك لتؤدي الواجب الوطني!

ودخل الجندي الخيمة، لكنه ما أن دخل حتى خرج من فوره، لأن إريناديرا أرادت أن تتحدث مع جدتها.

دست الجدة محفظة النقود في صدرها، ودخلت الخيمة التي لم تكن فسيحة، ولكنها مرتبة ونظيفة. في آخرها، وعلى أحد أسرة الجيش كانت إريناديرا ترقد عاجزة عن

وقف رعشة انتابت جسدها كله، وبدت في حالةزرية، وقد اتسخ جسدها بعرق الجنود.

قالت ـ وهي تحبس دموعاً متحجرة في مقلتيها:

- جدتي.. إني أهلك!

تحسست الجدة جبينها، وعندما أدركت أنها لا تعاني من الحمى، حاولت أن تهدئ من فزعها، وتبعث في نفسها شيئاً من العزاء، فقالت:

- باقي عشرة جنود فقط!

فشرعت إرينديرا تبكي مطلقة صرخات حادة، كأنها حيوان خائف.

فأدركت الجدة حينئذ أنها قد تجاوزت حدود ما يبعث الفزع في الأبدان، فمسدت رأسها، وأعانتها على أن تعود إلى هدوئها، قائلة:

- المشكلة أنك ضعيفة.. هيا.. لا تبكي.. ضعي أعشاب "المريمية" في الماء، واستحمي لتسري الدماء في عروقك من جديد.. هيا!

وعندما هدأ روع إرينديرا، وزال فزعها، غادرت الجدة الخيمة، وأعادت للجندي المنتظر نقوده، وهي تقول:

- انتهى اليوم.. عد في الغد، وسأمنحك المكان الأول في الطابور!

ثم صرخت في المصطفين في الطابور!

- انتهى اليوم يا شباب.. عودوا في التاسعة من صباح الغد!

فانفض جمع الجنود والمدنيين، وهم يجرجرون أقدامهم، ويصدرون صيحات الاحتجاج، فواجهتهم الجدة بكل رباطة جأشها، ولوّحت لهم بصولجانها، وصاحت:

- أنتم أجلاف لا تراعون شعوراً، وليس لديكم رأفة أو رحمة، مم تظنون الفتاة قد خلقت؟!.. من حديد؟!.. أو أن أراكم مكانها أيها المنحرفون المتسكعون الأقذار.. هيا انصرفوا!

ورد عليها الشبان بإهانات مماثلة، لكن الأمر انتهى بسيطرتها على الموقف بمعاونة خدمها الهنود.

وحين استدارت لتعود إلى الخيمة، شاهدت أوليسيس ـ الذي لم ينل منه الليل ـ يقف وحيداً، في المكان الذي كان يصطف فيه الرجال، وقد لفته هالة خيالية، وبدا كمن يمكن رؤيته في الظلام بسبب تألقه وبريقه.

بادرته الجدة بالسؤال:

- وأنت.. ماذا حدث لجناحيك يا ملاكي؟

فرد أوليسيس بصورة طبيعية وبكل جدية:

- كان جدي هو الذي يمتلك جناحين، لكن أحداً لم يصدق ذلك!

فنظرت إليه الجدة نظرة فاحصة وقالت له بينما كانت تشعر بالافتتان:

- حسناً.. أنا أصدق ذلك، ولكن أعد جناحيك إلى مكانهما، وعد غداً.

وتركته واقفاً متحرقاً ومتحيراً، ودخلت الخيمة، وكانت إرينديرا قد شعرت بتحسن بعد استحمامها بالماء المذاب فيه أعشاب "المريمية" وارتدت قميص نوم قصير مزركش الأطراف، وعكفت على تجفيف شعرها وتمشيطه قبل أن تنام، لكنها كانت ماتزال تبذل جهداً حتى لا تنهمر دموعها، في حين كانت جدتها قد استغرقت في النوم.

ومن فتحة في الخيمة خلف سرير إرينديرا برز رأس أوليسيس، رأت الفتاة العينين القلقتين الشفافتين، لكنها

قبل أن تنطق، حككت رأسها بالمنشفة، لتتأكد من أن ما رأته ليس خيالاً أو وهماً، في حين طرف أوليسيس بجفنيه، فسألته بصوت حرصت على أن يكون منخفضاً:

- من أنت؟

فمد أوليسيس جسده من الفتحة حتى بدا كتفاه، وقال:

- أنا أوليسيس!

ومد يده برزمة النقود التي اختلسها من أبيه، وقال:

- لدي نقود كثيرة.

فأرخت إريندира يديها على السرير، ودنت بوجهها منه، وراحت تحاوره، كما لو كانا طفلان يلهوان في فناء.

- كان المفروض أن تقف في الطابور.

- وقفت بالفعل، وانتظرت طوال الليل.

- حسناً.. عليك إذن بالانتظار حتى صباح الغد، فإني أحس بألم شديد في كليتيَّ.

في هذه اللحظة، كانت الجدة تغمغم وتهذي وهي نائمة وتقول: "عشرون عاماً مضت منذ انهمر المطر لآخر مرة، كانت العاصفة رهيبة، حتى أن ماء المطر امتزج بماء

البحر، وصباح اليوم التالي امتلأت الدار بالسمك والقواقع، ورأى جدك أماديس - رحمه اللّه - أشعة شيطان البحر، تطفو وترتفع في الهواء".

في تلك الأثناء، كان أوليسيس قد اختفى خلف السرير، فبدت على محيا إريندريرا ابتسامة لاهية، وقالت:

- لا تخف.. فهي تهذي دائماً كالمجنونة، وهي راقدة، لكن الزلزال نفسه لا يجعلها تستيقظ.

فعاود أوليسيس الظهور، وتطلعت إليه إريندريرا بابتسامة عابثة، يخالجها الانفعال بعض الشيء، ثم نزعت الملاءة الملطخة عن السرير، وقالت:

- هيا.. ساعدني في تغيير الملاءة.

فأقبل أوليسيس من خلف السرير، وتناول أحد أطراف الملاءة، بينما أمسكت هي بطرفها الآخر، ولأن الملاءة كانت أكبر كثيراً من مساحة السرير، لذلك راح يطويها معها عدة مرات، ومع كل مرة كان يقترب منها.

قال فجأة:

- كنت سأجن شوقاً لرؤياك، بعدما سمعت كثيرين يقولون إنك جميلة.. وهم على حق!

فقالت إريnديرا:

- ولكني سأموت!

فقال:

- أمي تقول إن من يموتون في الصحراء، لا يصعدون إلى ملكوت السماء، وإنما يغوصون في البحر.

وضعت إريnديرا الملاءة المتسخة في جنب، ثم قالت:

- أنا لم يسبق لي أن رأيت البحر!

- إنه يشبه الصحراء، وإن كان ممتلئاً بالماء الكثير!

- إذن فليس بمقدورنا السير فيه.

- أمي كانت تعرف رجلاً بوسعه السير في البحر، لكن ذلك كان منذ عهد بعيد.

خلب الحديث لبها، وأمتعها، لكنها كانت راغبة في النوم.

قالت:

- إذا جئت في الغد مبكراً، فستكون أول من يقف بالطابور!

فقال:

- لكني سأرحل مع أبي عند الفجر.

- ألن تعود وتمر من هنا؟!

- من يدري؟.. لقد مررنا هنا بالصدفة، لأننا ضللنا طريقنا إلى الحدود.

فتطلعت إرينديرا وهي غارقة في التفكير إلى جدتها الغافية على السرير الآخر، ثم حسمت الأمر،وقالت:

- ليكن.. أعطني النقود!

وناولها أوليسيس النقود، فرقدت على السرير، لكنه ظل واقفاً وهو يرتعد، وبدا كما لو كان عزمه قد تراخى، فأمسكت به من يده وجذبته إلى جوارها على السرير، ولاحظت ما يعاني منه، فسألته:

- أهذه هي المرة الأولى؟

لم ينطق، لكنه ابتسم في أسى، فتحولت إرينديرا إلى مخلوق آخر، غير الطفل الذي يبدو على ملامحها، وقالت:

- تنفس بهدوء وببطء!، هكذا الأمر دائماً في المرة الأولى!

وفيما كانت تنزع عنه ملابسه، راحت تهدهده بحنان، وقالت:

- قلت لي إن اسمك...؟

- أوليسيس.

- هذا من أسماء هنود الجرينجو؟!

- لا.. إنه اسم بحار.

كانت قد عَرّت صدره، فمنحته بعض القبلات، كأنها تقبل يتيماً، ثم تشممته، وقالت:

- تبدو كما لو كان بدنك قد خلق كله من ذهب، إلا أن رائحة الزهور تفوح منك.

فقال:

- ربما يرجع هذا إلى رائحة ثمار البرتقال.

وغدا أكثر هدوءاً، واكتسى وجهه بابتسامة تشي بمعنى التواطؤ، ثم أضاف قائلاً:

- إننا نحمل معنا أقفاصاً بها طيور للتمويه، ولكن ما نقوم به فعلاً هو تهريب البرتقال عبر الحدود.

فقالت إرينديرا في دهشة:

- ولكن البرتقال ليس مما يُهرَّب؟!

فقال:

-          أعـرف.. ولكـن برتقالنـا ممـا يُهـرَّب، فكـل برتقالة منه تعادل خمسين ألف بيزو.

فضحكت إرينديرا لأول مرة منذ وقت بعيد، وقالت:

-          ما أحبه فيك هو أنك تتحدث عن الأمـور الهزليـة بطريقة جادة.

ومـرة أخـرى عـادت إليهـا عفويتهـا ورغبتهـا في الثرثـرة، كـأنمـا لم تغـير بـراءة أوليسـيس حالتهـا المزاجيـة، وإنمـا شخصيتها أيضاً.

وكـانت الجدة ما تزال تعاني محنتهـا وتواصـل الحـديث أثناء نومها:

"في تلـك الأيـام.. ومـع بدايـة شـهر مـارس، حملـوك إلى الـدار، كنـت تبـدين مثـل سـحلية ملفوفـة بـالقطن.. كـان أماديس أبوك في عز شبابه وقمة مجده، وكـان رائق المـزاج جداً في ذلك الأصيل، حتى أنه أرسل في طلب عشـرين عربـة زهور، وظل ينثر تلك الزهور على امتداد الشارع حتى تألقت القرية بأسرها بلون الأزهار الذهبي".

ظلت على حال صخبها مصدرة صيحات قوية، ومنطلقة بانفعـال عنيـد سـاعات طويلـة. خلالهـا لم يكـن أوليسـيس

يسمعها ، لأن إريندير ا غرقت معه في الحب بانهماك وصدق عظيمين، حتى أنها ضاجعته مرة ثانية لقاء نصف الأجر، ثم واصلت مضاجعته دون مقابل حتى الفجر، بينما كانت جدتها غارقة في هذيانها.

انتصب جمع من المبشرين، واقفاً كتفاً إلى كتف وسط الصحراء، في حين كانت رياح ضارية، كرياح المحنة، تعصف بثيابهم ذات النسيج الخشن، وتشعِّث لحاهم الطويلة، وغدوا عاجزين عن الثبات في وقفتهم وخلفهم كان مقر الإرسالية المشيد على النمط الفيكتوري، ويبرز في أعلاه برج صغير يتدلى بداخله جرس، وكانت جدران المبنى مطلية باللون الأبيض الذي بدا باهتاً بتأثير حرارة الشمس والغبار.

أشار أصغر المبشرين، والذي كان مسؤولاً عن الجمع كله، إلى صدع في الأرض، وصاح:

- لن تجتازوا هذا الخط.

فتوقف الحمالون الهنود الأربعة الذين يحملون الجدة في محفة، لدى سماعهم الصيحة.

احتفظت الجدة بمظهرها المتعالي وكبريائها، رغم عدم شعورها بالراحة وهي تجلس فوق ألواح المحفة الخشبية، ورغم الغبار والعرق اللذين كانا يضايقانها.

أما إرينديرا فكانت تمشي خلف المحفة على قدميها، وخلفها كان طابور من ثمانية هنود يحملون المتاع، وفي نهاية هذا الموكب كان المصور على دراجته.

قالت الجدة:

- ليست الصحراء ملكاً لأحد!

فقال المبشّر:

- إنها ملك للّه! وأنت بعملك الخبيث وخطيئتك تنتهكين نواميسه المقدسة.

فأدركت الجدة من لهجة المبشر عدم جدوى الصدام معه، حتى لا تحطم رأسها على صخرة عناده، وتمالكت زمام أعصابها المنفعلة، وقالت:

- لا أفهم ما تقصده يا بني!

فأشار المبشر نحو إرينديرا، وقال:

- تلك الطفلة لم تبلغ سن الرشد.

- لكنها حفيدتي.

- هذا يجعل الأمر أكثر سوءاً.. اتركيها لرعايتنا راضية، وإلا لجأنا لطرق أخرى!

لم تكن الجدة تتوقع أن يمضي المبشر إلى هذا الحد، فاستسلمت في خوف، وقالت:

- ليكن.. ما دام الأمر كذلك.. لكنني سأمر وأتجاوز هذا الخط إن عاجلاً أو آجلاً.. سترى!

بعد ثلاثة أيام من تلك المواجهة مع المبشرين، كانت الجدة وإريندیرا غارقتين في النوم، في خيمتهما المنصوبة بالقرب من مقر الإرسالية، حين تسللت إلى الخيمة مجموعة من الأجساد الصامتة بخطى حذرة وزاحفة، وكأنها طليعة عسكرية.

كانوا ستة من الرهبان الهنود المنضمين إلى الإرسالية التبشيرية حديثاً، وكانت ملامحهم تعكس قوة وشباباً وثيابهم الخشنة المنسوجة من الكتان كانت تلتمع وهجاً وبريقاً في ضوء القمر، ودون أن يحدثوا ضجة لفوا إريندیرا في ستارة، ورفعوها وهي نائمة، وحملوها وانطلقوا بها بعيداً كأنها سمكة كبيرة هشة اصطيدت بشبكة قمرية.

في إطار محاولاتها لإنقاذ حفيدتها من حماية المبشرين التي فرضت عليها، لم تدع الجدة وسيلة إلا جربتها.

وعندما أخفقت جميع الوسائل، سواء المباشرة والصريحة، أو غير المباشرة، لجأت الجدة أخيراً إلى السلطة المدنية التي كان يمثلها رجل عسكري.

ذهبت إليه، فوجدته واقفاً في فناء داره بصدره العاري، يطلق النار من مسدسه على سحابة سوداء في ركن من أركان السماء المتوهجة كالحريق، كان يحاول أن يثقب تلك السحابة ليجلب المطر، وكانت طلقاته غاضبة وبلا جدوى، ورغم انهماكه في الأمر، إلا أنه استغرق الوقت الضروري للإصغاء إلى الجدة. وحين فرغ من سماعها أوضح لها حقيقة المسألة بقوله:

- أنا لا أستطيع أن أساعدك، أو أن أتدخل لحل مشكلتك، فالقس هنا بحكم الاتفاقية المعقودة مع البابا، له الحق في الاحتفاظ بالفتاة إلى أن تبلغ سن الرشد، أو تبلغ باب بيت زوجها.

فسألته الجدة ـ مندهشة:

- ولم إذن نصَّبوك عمدة هنا؟

فرد عليها:

- لجلب المطر!

وحينما لاحظ أن السحابة التي كان يصوِّب عليها تحركت بعيداً عن مرمى مسدسه، أنهى الاضطلاع بواجباته الرسمية، وكرّس اهتمامه كاملاً للجدة.

قال:

- أنت تحتاجين يا سيدتي العزيزة إلى شخص مهم.. شخص له وزن، يشهد لصالحك.. وبمقدوره أن يقسم مؤكداً مكانتك الأخلاقية وحسن سيرك وسلوكك الطيب، على أن يكون ذلك في مكتوب يذيله بتوقيعه.

ثم سألها:

- أتعرفين السيناتور "أونيسيمو صانشيز"؟

فردت الجدة بغضب وقور، وهي تجلس في العراء تحت الشمس اللاهبة على مقعد مرتفع قاعدته شديدة الضآلة بالنسبة لمؤخرتها المكتنزة:

- لستُ يا سيدي إلا امرأة فقيرة وحيدة في عراء تلك الصحراء!

فنظر إليها العمدة بإشفاق، وقد انحرفت عينه اليمنى بتأثير الحر الشديد، وقال:

- إذن فلا تضيعي وقتي ووقتك يا سيدتي.. ولسوف تتعفنين في هذا الجحيم، ما دمت كما تقولين!

لكنها لم تتعفن بالطبع، نصبت خيمتها في مواجهة مقر البعثة التبشيرية، وجلست أمامها على كرسي عرشها تمعن التفكير، وتقلّب الأمر على جميع وجوهه، وكأنها محارب وحيد ينفرد بحصار مدينة محصنة.

أما المصور الجوال، الذي كان يتبعها حيثما ذهبت، والذي سمحت له الأيام الماضية أن يعرفها حق المعرفة، فقد وضع آلة تصويره ومعداته على حامل الدراجة الخلفي، وحين تأهب لمغادرة المكان وحيداً، رآها - والشمس في كبد السماء - تحدّق بعينين ثابتتين في مقر البعثة التبشيرية، وسمعها وهي تقول:

- لنر من منا سيناله الإعياء واليأس.. أنا أم أنتم؟!

فقال لها وهو يركب الدراجة:

- لقد كانوا هنا منذ ثلاثة قرون.. ولا ينتظر أن يرحلوا قبل مضي ثلاثة قرون أخرى.. ولازال بمقدورهم - بموجب الاتفاقية المعقودة مع البابا - أن يأخذوها.. إني راحل!

وعندئذ فقط لاحظت الجدة الدراجة المحملة بأجهزة التصوير، فسألته:

- إلى أين تمضي أيها التعيس؟

- الدنيا واسعة!

فتنهّدت الجدة، ودون أن تحرك رأسها، حتى لا تغيب قلعة البعثة التبشيرية عن نظرها، قالت بغضب:

- ليست واسعة بقدر ما تظن يا جاهل!

ولم تتحرك من مكانها طوال أيام عديدة، غير عابئة بالحر الشديد أو بالرياح الليلية العاصفة.

كانت طوال الوقت غارقة في التفكير. وأثناء تلك الأيام لم يغادر أحد من المبشرين مقر البعثة، وأقام الهنود المصاحبين للجدة سقيفة من سعف النخيل إلى جوار خيمة الجدة، نصبوا تحتها أراجيح نومهم الشبكية.

كانت الجدة تقف بالساعات الطويلة لتراقب مقر البعثة، حتى وقت متأخر من الليل، ثم عندما يحل بها

التعب تجلس على عرشها ويداهمها النعاس متقطعاً على فترات، وهي تمضغ الحبوب النيئة التي تحتفظ بها في محفظتها، بتراخ عنيد، وكأنها ثور جاثم على الأرض يجتر!

في إحدى الليالي، مرت قافلة من الشاحنات، يغطي كلا منها مشمع مشدود بإحكام، ليخفي ما بداخلها، بالقرب من الجدة، كانت بطيئة في سيرها، وكانت الأضواء المنبعثة من مصابيحها المستديرة الملونة تجعلها شبيهة بمذابح قرابين متنقلة، تعرفت عليها الجدة بمجرد أن وقع نظرها عليها، إذ كانت تشبه تمام الشبه، شاحنات أماديس الأب والابن.

أبطأت آخر شاحنة في القافلة، ثم توقفت، ونزل منها رجل وراح يثبّت شيئاً في مؤخرتها - بدا كما لو كان تذكاراً من أماديس الأب والابن. كان الرجل يضع على رأسه قبعة من القش مثنية الحواف إلى أعلى، وينتعل حذاءً برقبة طويلة. وكان يتقاطع على صدره حزامان للطلقات، وفي كتفه بندقية، وعلى كل جنب من جنبيه يتدلى مسدس.

نادته الجدة تحت وطأة إغراء لا يقاوم، ثم سألته:

- ألا تعرفني؟

ودونما إشفاق غمرها الرجل بفيض من ضياء كشاف صغير في يده، وراح يتفرس في وجهها الذي أضنته اليقظة، وعينيها اللتين أذبلهما الإعياء، وشعرها المنكوش الذي رغم سنها وحالتها البائسة، كان يشي بأنها كانت أجمل نساء الدنيا.

حينما فحصها بنظراته، بما يكفي للتأكد من أنه لم يسبق له أن رآها من قبل، أطفأ الكشاف، وقال:

- كل ما أعرفه على وجه اليقين، أنك لست عذراء العون الأزلي!

فقالت بصوت بالغت في جعله عذباً ورقيقاً:

- بل أنا السيدة!

فوضع الرجل يده على مسدسه بدافع غريزي، وقال:

- أي سيدة؟

- السيدة أماديس الكبيرة.

فقال ـ وقد بدأ يتوتر:

- إذن فأنت لا تنتمين إلى هذا العالم. ماذا تريدين؟

- أريدك أن تساعدني في إنقاذ حفيدتي.. حفيدة أماديس الكبير، وابنة أماديس الصغير، الأسيرة لدى البعثة التبشيرية هناك.

وأشارت بيدها إلى مقر البعثة، بينما غالب الرجل خوفه وارتباكه، وقال:

- لقد أخطأت يا سيدتي الباب الذي يجب أن تطرقيه.. فلئن كنت تظنين أننا يمكن أن نزج بأنفسنا في شؤون الرب، فلست بالتأكيد مَنْ تدّعين أنك هي، ولا قُدِّر لك أن تعرفي شيئاً عن آل أماديس.. وليس لديك أي فكرة عن التهريب والمهربين.

وتركها وانصرف.

في ذلك اليوم، نالت الجدة قسطاً من النوم أقل مما اعتادت عليه. فرقدت يقظى تقلّب الأمر، وتستعرض شتى الأفكار، وقد التفت ببطانية من الصوف، بينما أصابت أضواء النهار الأولى ذاكرتها بالتشوش، وقاومت الهذيان الذي كان يريد أن ينطلق رغم يقظتها، فاضطرت إلى أن

تضغط بيدها على قلبها حتى لا تخنقها ذكرى دار على شاطئ البحر، كانت تكتظ بزهور حمراء، عرفت فيها السعادة يوماً.

مكثت على هذا النحو، إلى أن سمعت جرس البعثة التبشيرية يدق، وتشبعت الصحراء برائحة خبز التناول الصباحي الساخن.

عندئذ فقط، نفضت عنها إعياءها وكسلها، وقد سيطر عليها وهم أن إريnديرا نهضت من نومها وراحت تبحث عن سبيل للهرب والعودة إلى رحابها.

منذ أن اختطفت إريnديرا، وحُملت إلى مقر البعثة التبشيرية، لم يفتها نعاس ليلة واحدة.. كانوا قد قصوا شعرها بمقص يشبه مقص تقليم الأشجار، حتى أصبحت رأسها تحاكي الأجمة، وألبسوها رداء راهب خشن النسيج. وسلموها دلواً وفرشاة لتنظيف الدرج، في كل مرة يصعد أو يهبط عليه أحد من ساكني مقر البعثة، كان عملاً شاقاً، حيث لم تكن خطى المبشرين وحملة الرسائل من الرهبان الجدد، تنقطع عن الصعود والهبوط. لكن إريnديرا كانت تشعر كما لو أن كل يوم، هو يوم من أيام الآحاد،

بالمقارنة مع قارب التجديف الرهيب الذي كانت ترقد عليه. فضلاً عن هذا فإنها لم تكن الوحيدة التي تشعر بالإنهاك مع مقدم الليل، لأن تلك البعثة التبشيرية كانت مكرسة لا لمكافحة الشيطان فقط، وإنما لقهر الصحراء أيضاً.

فرأت إرينديرا الرهبان الجدد والكهنة، وهم يسحبون الأبقار لترعى العشب، ثم رأتهم وهم يحلبونها في صبر وأناة كما رأتهم وهم يقفزون على ألواح خشبية أياماً بطولها لصنع الجبن، ثم وهم يساعدون عنزاً فاجأها المخاض.. رأتهم كذلك يتصببون عرقاً شأن حمالي سفن لفحتهم الشمس، وهم يحملون الماء من خزان بعيد ليرووا حديقة شاسعة غرس نباتاتها رهبان آخرون، لتنمو الخضرة في صخور الصحراء النارية. ورأت نيران الجحيم الأرضي تتأجج في الأفران لإنضاج الخبز، ونيراناً أخرى يسخنون عليها المكاوي لكي الثياب.

وشاهدت ذات مرة راهبة تطارد خنزيراً في أرجاء الفناء، وتتزلق وهي تمسك به من أذنيه في بركة موحلة، دون أن تسمح للخنزير أن يفلت منها، إلى أن سارع راهبان مستجدان يضعان على صدرهما مريلتين جلديتين، في

معاونتها، ثم احتز أحدهما عنق الخنزير بسكين ذات نصل حاد، فغطى الدم والوحل ثلاثتهم.

ورأت في جناح المرضى المنعزل راهبات مصدورات، في أكفانهن الليلية، ينتظرن آخر أوامر الرب، وهن يطرِّزن ملاءات الزفاف، في حين يكون الرجال هناك في الصحراء يلقون بمواعظهم.

هكذا كانت إرينديرا تحيا في ظلال البعثة التبشيرية وتكتشف صوراً أخرى للحسن والرعب، لم يسبق لها أبداً أن تصورتها في عالم مضجعها الضيق، لكن أشد الرهبان الجدد خشونة، وأكثرهم قدرة على الإقناع، لم يفلح في انتزاع كلمة واحدة منها منذ خطفها وإحضارها إلى مقر البعثة.

ذات صباح، وبينما كانت تضع سائل التنظيف في الدلو، استعداداً لمهمة تنظيف السلالم، سمعت موسيقى وترية تحاكي نوراً أكثر شفافية من نور الصحراء، خلبت لبها وأسرتها، بحثت بأذنيها عن مصدرها، إلى أن وجدتها تنبعث من قاعة خالية هائلة الاتساع، عارية الجدران، ضخمة النوافذ، انهمر نور الصيف الباهر عبرها وتجمد.

أطلت من باب القاعة خلسة ، فرأت في وسطها راهبة بديعة الحسن، لم ترها من قبل، عاكفة على عزف إحدى مقطوعات عيد الفصح الموسيقية على آلة وترية. ودون أن يطرف لها جفن، راحت تصغي إلى الموسيقى. وتعلّق قلبها بها، وكأنه خرزة صغيرة تتدلى من خيط رفيع، إلى أن قُرع الجرس الذي يعلن عن موعد وجبة الغداء. عقب تناول الطعام، وفيما كانت تكنس درجات السلم بمقشتها، وتنتظر إلى أن تنقطع خطى الرهبان الجدد عن الصعود والهبوط، انفردت بنفسها، وتحدثت للمرة الأولى منذ وطئت قدماها مقر البعثة، قالت:

"إني سعيدة"

ووضع قولها ذاك حداً لآمال الجدة في أن إرينديرا ستهرب من مقر البعثة وتعود إلى رحابها.

لكن الجدة ظلت على حال صمودها وحصارها الصخري لمقر البعثة، دون أن تستطيع اتخاذ أي قرار، إلى أن جاء (أحد بنتيكوست)، في تلك الأثناء، كان المبشرون يجوبون الصحراء بحثاً عن العشيقات اللاتي انتفخت بطونهن بالحمل، لتزويجهن من عشاقهن... كانوا يجوبون

الصحراء، ويصلون إلى أبعد المستوطنات بها، في شاحناتهم القديمة والمتهالكة، مصطحبين معهم أربعة هنود مسلحين، وحقيبة مليئة بالثياب الرخيصة الثمن. وكان الجانب الأكثر صعوبة في رحلة الصيد الهندية تلك، هو إقناع النسوة اللواتي كن يدافعن عن أنفسهن في مواجهة العناية الربانية بحجة صادقة قوامها أن الرجال الذين يرقدون كسالى في أراجيح نومهم، يشعرون بأن من حقهم الطبيعي أن تقوم الزوجات الشرعيات بعمل أكبر وأشق، مثلما لا يكون الحال مع العشيقات، ودون أن يتحملوا هم أية مسؤولية، أو يكلفوا بأي عمل يكون فيه مشقة لهم!.. كان من الضروري استدراجهن بالحيلة ودس إرادة الرب في شراب اللغة التي يخاطبونهن بها، حتى تبدو لهن أقل قسوة وأكثر إقناعاً. ودائماً ما كان ينتهي الأمر بأكثر النسوة عناداً ودهاءً إلى الاقتناع، بعدما يُلوِّح لهن المبشرون بالأقراط اللامعة والبراقة، والخرز الملون، والثياب الجديدة. أما الرجال، فالأمر معهم كان شيئاً آخر؛ فما أن يتم إقناع النسوة، حتى تجبرهم أعقاب البنادق، على النزول من فوق

أراجيح نومهم، ثم يشد وثاقهم، ويُلقى بهم في مؤخرة الشاحنة تمهيداً لتزويجهم بالقوة في يوم (أحد بنتيكوست)!

وكثيراً ما شاهدت الجدة الشاحنة الصغيرة المكتظة بالنسوة الهنديات المنتفخات البطون والموشكات على الوضع، وهي تقبل بعد تجوالها في الصحراء، وتدخل في مقر البعثة التبشيرية، لكنها لم تدرك الفرصة المواتية لها، إلا في (أحد بنتيكوست) ذاته، حينما سمعت قرع الأجراس، وشاهدت الألعاب النارية والصواريخ التي تضيء السماء، ورأت الجمع البائس المبتهج وهو في طريقه إلى الحفل، ووسطه النسوة الحوامل يضعن نقاب وتاج العروس، ويتأبطن أذرع رفاق الصدفة الذين سيصبحون أزواجاً لهن.

في نهاية الموكب مر صبي شديد البراءة، شعره مقصوص على الطريقة الهندية، وتكسوه خرق بالية، يحمل في يده شمعة كبيرة يتدلى منها شريط حريري.

نادته الجدة، وسألته بأرق نبرات صوتها:

- قل لي يا بني.. ما دورك في هذا الحفل؟

فقال الصبي - الذي كان يشعر بالضجر بسبب دوره الذي لم يقتنع به، والمقتصر على حمل الشمعة الكبيرة،

والـذي كـان مـن العسـير أن يطبـق فمـه بسـبب نتـوء أسـنانه الأمامية:

- سأتناول القربان من يد القس لأول مرة.
- كم دفعوا لك؟
- خمسين بيزو.

فانتزعـت الجـدة رزمـة الأوراق الماليـة مـن محفظتهـا، ومدّت يدها بها نحو الصبي، قائلة:

- سـأعطيك عشـرين بيـزو.. لا لتنـاول قربانـك الأول، وإنما لتتزوج!
- ممن؟
- من حفيدتي!

وهـكـذا تزوجـت إرينـديرا في فنـاء البعثـة التبشـيرية، وهي ترتدي زيها الكهنوتي، وتلتف بشال حريري أهداه لها أحـد الرهبـان الجـدد، دون أن يتـاح لهـا حتـى أن تعـرف اسـم زوجها، الذي اشترت جدتها خدماته لأجلها، وتحملت بأمل لا يعـرف اليقين سـبيلاً للوصول إليه، عـذاب الركـوع على الأرض الملحية الصخر، ورائحة الماعز الكريهة المنبعثة من العرائس المئتين الحوامل، والعقـاب المتمثـل في رسـالة بـولس

الرسول، التي كانت كلماتها تتلى بصوت كالمطارق باللغة اللاتينية، تحت وهج الشمس الحارقة.

ولم يجد المبشرون سبيلاً للوقوف في وجه خدعة الزواج تلك، التي لم تخطر لهم على بال، واكتفوا بأن وعدوها ، كمحاولة أخيرة للانتصار على حيل الجدة، بأن تظل معهم - رغم الزواج - في مقر البعثة.

إلا أن إريندير ا وجدت نفسها عقب ذلك الاحتفال، وبحضور المدبر الرسولي، والعمدة العسكري الذي اعتاد إطلاق النار من مسدسه على السحاب، وزوجها الذي اقترنت به منذ لحظات، وجدتها، خاضعة لتأثير السحر المسيطر عليها منذ ميلادها. وحينما سألوها عن مكنون إرادتها الحرة والقاطعة، لم تبدر منها حتى تنهيدة تردد، وقالت:

أريد الرحيل!

ثم أوضحت الأمر وهي تشير إلى الصبي الذي أصبح زوجها:

ولكن ليس معه.. وإنما بصحبة جدتي!

كـان أوليسـيس قـد بـدد أصـيلا كـاملاً، وهـو يحـاول اختلاس برتقالـة واحـدة مـن مزرعـة أبيـه، ولـكنـه فشـل لأن أباه لم يـكن ليغفل عنها لحظة، وهو يقلم الأشـجار المصـابة بالمزرعة.

فـراح - كـاظمـاً غيظـه، ومـؤجلاً خطتـه ليـوم آخـر - يساعد أباه إلى أن قلما آخر أشجار البرتقال.

وفي شـرفة الـدار الـتي كـانـت تتوسـط المزرعـة المختفيـة عـن الأنظـار، كـانـت أم أوليسـيس جالسـة علـى كرسـيها الهزاز، بنـدقي الطـراز، وهـي تضـع حـول صـدغيها وريقـات أشجار مدخنة، لتخفف من آلام الصداع التي تعاني منها.

وكانت تتبع ولـدها بنظـرات عينيهـا الهنديـة الخالصـة، كـأنها شـعاع ضيـاء خفـي، وهـو يـروح ويجـيء في المزرعة.

كـانت تبدو بهية الحسـن، أصغر سنـاً بكثير من زوجها الذي بدا عجوزاً، لم تـكن تبقى فقط على زي قبيلتها الذي لا ترتـدي سـواه، وإنمـا كـانـت كـذلك تحـيط علمـاً بمعظـم الأسـرار القديمة لقبيلتها الهندية.

عنــدما رجــع أوليســيس إلى الــدار حــاملاً معــه أدوات التقليم طلبت منـه أن يناولهـا جرعـة دواء السـاعة الرابعـة مـن

على مائدة قريبة، وما أن لمس بيده الكوب والزجاجة حتى تغير لونها، فمس عابثاً إبريقاً زجاجياً شفافاً، كان موضوعاً على المائدة بجوار بعض الأكواب، فتحول الإبريق كذلك إلى اللون الأزرق.

وكانت أمة تراقبه بنظراتها، وهي تتناول دواءها، وحينما تيقنت أن الأمر لا يرجع إلى غيبوبة مردها ما تشعر به من ألم الصداع، سألته بلغة هنود الجواجيرو:

- منذ متى يحدث هذا معك؟

فرد عليها بنفس اللغة:

- منذ عودتنا من الصحراء، ودائماً ما يحدث مع الأشياء المصنوعة من الزجاج.

وراح يمس الآنية الزجاجية المختلفة الموضوعة على المائدة، واحدة بعد أخرى، فتتغير ألوانها جميعاً .

فقالت له:

- هذه أمور لا تحدث إلا بسبب العشق.. فمن هي؟

لم يجبها..

وكان أبوه ـ الذي لا يفهم لغة الجواجيرو ـ ماراً إلى جوار الشرفة في تلك اللحظة، وهو يحمل بعض ثمار البرتقال:

- عم تتحدثان؟

فقال أوليسيس:

- لم نكن نتحدث عن موضوع بعينه!

كانت الأم تجهل اللغة الهولندية، ولذلك سألت ابنها، بعدما دخل زوجها الدار، بلغة الجواجيرو:

- ماذا كان يقول؟

فرد عليها أوليسيس:

- لم يقل شيئاً عن موضوع بعينه!

وكان الأب قد غاب عن ناظريه، ثم لاح له مرة أخرى، عبر نافذة المكتب المفتوحة على الشرفة.

وانتظرت الأم حتى انفردت بولدها، ثم عاودت سؤالها الأول:

- قل لي.. من هي؟

- لا أحد!

قالها دون اهتمام، ودون أن يلتفت إليها، لأنه كان مشغولاً بمتابعة أبيه في المكتب من خلال النافذة فرآه وهو يضع ثمار البرتقال التي كان يحملها في يده، فوق الخزانة، بينما كان يفتحها، وفي حين كان يراقب أباه، كانت الأم تراقبه.

قالت:

- لم تذق شيئاً من الخبز منذ وقت طويل.

- لا أحب مذاقه.

فجأة اكتست ملامح الأم بحيوية غير مألوفة، وقالت:

- ذلك لا يكون إلا بسبب العشق، فالعشاق لا يستطيعون مذاق الخبز!

وانتقل صوتها، وكذلك نظرات عينيها، من الرجاء إلى التهديد، وقالت:

- خير لك أن تصارحني بالأمر، وإلا أجبرتك على الاستحمام بالمطهرات.

وفي المكتب، أغلق الهولندي باب الخزانة المصفح بعدما وضع بداخلها ثمار البرتقال. وعندئذ ابتعد أوليسيس عن النافذة، ورد على أمه بنفاذ صبر، قائلاً:

- أخبرتك أن ليس هناك أحد، وإن لم تصدقيني فاسألي أبي.

خرج الهولندي من مكتبه، مشعلاً غليون البحار، الذي لا يفارقه، وحاملاً تحت إبطه الكتاب المقدس الذي أبلاه كثرة الاستخدام.

سألته زوجته بالإسبانية:

- من قابلتها في الصحراء؟

- لا أحد، وإن لم تصدقيني فاسألي أوليسيس!

جلس في نهاية الشرفة، وراح يسحب أنفاساً من غليونه حتى نفد ما فيه من تبغ. ثم فتح الكتاب المقدس دون أن يختار صفحة بعينها، وراح يتلو الفقرات التي وقع عليها بصره بلغة هولندية متدفقة رنانة المقاطع.

عندما انتصف الليل، كان أوليسيس مايزال غارقاً في تفكير عميق حرمه من النوم، وراح يتقلب في أرجوحة نومه الشبكية، محاولاً قهر الألم الذي تبعثه الذكريات في نفسه، إلى أن منحه ذات الألم، القوة التي كان في مسيس الحاجة إليها لاتخاذ قراره. عندئذٍ نهض وارتدى على عجل

بنطلونه الخشن النسيج وقميصه المطبوع عليه مربعات ملونة، وانتعل حذاءه، وقفز من النافذة، وهرب من الدار في الشاحنة المحملة بأقفاص الطيور وبينما كان يمضي خلال المزرعة، مد يده وقطف ثمار البرتقال الناضجة الثلاث التي عجز عن اختلاسها ذلك الأصيل.

ظل منطلقاً بالشاحنة عبر الصحراء بقية تلك الليلة، وعند الفجر راح يسأل في البلدان التي يمر بها عن مقر إرينديرا. لكن أحداً لم يستطع إرشاده. وأخيراً أبلغوه بأنها ترحل بصحبة الحملة الانتخابية للسيناتور "أونيسيمو صانشيز" الذي ربما يكون اليوم في "نوفاكاستيلا".

لم يعثر على الحملة الانتخابية في "نوفاكاستيلا" وإنما عثر عليها في البلدة التي تليها، إلا أن إريนديرا لم تكن معهم هناك. فقد أفلحت الجدة في جعل السيناتور يشهد برفعة أخلاقها وحسن سيرها وسلوكها، في مكتوب كتبه بخط يده، وذيله بتوقيعه. فمضت بالمكتوب لتفتح أشد الأبواب انغلاقاً في الصحراء.

في اليوم الثالث لتجواله بالصحراء، قابل أوليسيس مصادفة، ساعي البريد المحلي، فأبلغه بالاتجاه الذي يتعين عليه أن يسلكه قائلاً:

إنهم يمضون صوب البحر، وخير لك أن تسرع لأن العجوز اللعينة - فيما يبدو - تعتزم عبور البحر والذهاب إلى جزيرة آروبا*.

مضى أوليسيس في الاتجاه الذي حدده له ساعي البريد، وبعد مسيرة نصف يوم، وقع نظره على الخيمة العريضة المزركشة التي اشترتها الجدة من سيرك أشهر إفلاسه.

وكان المصور الجوال قد عاد إلى الجدة، بعدما اقتنع بأن الدنيا ليست واسعة، كما كان يظن، ونصب مناظره الطبيعية التي يستخدمها كخلفية للتصوير، بجوار الخيمة، فيما كانت فرقة نافخي الأبواق النحاسية، تعزف موسيقاها، وتخلب لب زبائن إرينديرا بأنغام (الفالس) المهموسة.

* إحدى جزر الأنتيل الهولندية.

انتظر أوليسيس دوره في الطابور ليدخل الخيمة. كان أول ما لفت انتباهه هو النظافة والترتيب بداخل الخيمة، ففراش الجدة كان قد استرد تألقه المبالغ فيه، كما كان تمثال الملاك المحارب جاثماً إلى جوار الصندوق الذي يضم رفاة كلاً من أماديس الأب وأماديس الابن، وكان هناك فضلاً عن ذلك حوض استحمام من القصدير يستند على مخالب أسد، تجعله مرتفعاً عن الأرض.

وكانت إريនديرا ترقد في فراشها الجديد الذي تحيط به ستائر من جميع جوانبه، وهي عارية، رابطة الجأش، تشع وهجاً طفولياً في ظل الضوء المنساب من خارج الخيمة إلى داخلها عبر فتحة بابها.

كانت غافية، رغم أن عينيها كانتا مفتوحتين، وقف إلى جوارها وفي يده ثمار البرتقال، ثم لاحظ أنها تنظر إليه، دون أن تشعر بوجوده، فمرر كفه أمام عينيها، وناداها بالاسم الذي ابتدعه حينما كان يستغرق في التفكير بها: إريندير!

استيقظت من غفوتها، وأحست بعريها أمامه، فندّت عنها صيحة قصيرة حادة، وغطت نفسها بسرعة بالملاءة، وأخفت وجهها، ثم قالت:

- لا تنظر إليّ.. فإن منظري بشع!

فقال لها:

- يكسوك لون البرتقال!

ورفع ثمار البرتقال أمام عينيها، ليتيح لها المقارنة، قائلاً

- انظري!

فأزاحت الملاءة عن عينيها، فرأت ثمار البرتقال، وتأكدت أن لها بالفعل نفس لون بدنها، ثم قالت:

- لا أريدك أن تبقى هنا الآن!

فقال:

- إنما أردت فقط أن أريك هذا.. انظري!

قشّر ثمرة البرتقال بأظافره، ثم شطرها، وأطلعها على ما بداخلها:

كان في قلبها ماسة حقيقية.

قال:

- هـذه هـي ثمـار البرتقـال الـتي نحملـها عـبر الحدود.

فصاحت إريندیرا وقد اعترتها الدهشة:

- ولكنها برتقالة حقيقية؟!

فابتسم قائلاً:

- طبعـاً.. فوالـدي يغـرس أشـجارها، ويتـابع نموهـا بكـل صـبر وأنـاة. لم تصـدّق إريـنديرا مـا رأتـه، فأزاحت الملاءة عن وجهها، ومدت يدها، وأمسكت بالماسة بين أصابعها، وراحت تتأملها.

قال:

- بثلاث برتقـالات كهـذه يمكننـا أن نطـوف حول العالم.

أعـادت إليـه الماسـة، وقـد لاحـت خيبـة أمـل في نظـرات عينيها.

في حين أضاف أوليسيس قائلاً:

- هذا فضلاً عن الشاحنة الصغيرة، وهذا...

وانتزع من تحت قميصه مسدساً قديماً.

فقالت:

- ليس بوسعي الرحيل قبل مضي عشر سنوات.

فقال:

- بل الليلة سترحلين.. حين ينام الحوت الأبيض.. سأكون بانتظارك في الخارج، مطلقاً نداء بومة.

وقلّد صوت البومة تقليداً جيداً، حتى أن البسمة لمعت في عينيها للمرة الأولى، ثم قالت:

- تماماً مثل جدتي!
- البومة؟
- لا.. الحوت!

وضحكا معاً في وقت واحد من هذا الخلط، إلا أنها التقطت خيط الحديث مجدداً، وقالت:

- لا تستطيع فتاة الرحيل دون إذن جدتها.
- ليس هناك ما يدعو إلى القلق.
- ستكتشف الأمر.. فهي تحلم بأمور كهذه!
- حين تبدأ الأحلام تراودها عن رحيلك، سنكون قد عبرنا الحدود.. سنعبرها على نحو ما يفعل المهربون.. لا تقلقي!

وأمسك بالمسدس في يده بثقة ، في صورة تماثل صورة قاتل محترف في شريط سينمائي، ثم قلّد أصوات الطلقات ليثير انفعالها بجرأته وشجاعته.

إلا أنها لم تقل شيئاً ، لم توافقه، ولم تعترض على ما يقوله، فقط لمعت في عينيها تنهيدة، ثم ودعته بقبلة، فهمس متأثراً:

- غدا سنرى السفن وهي تمضي إلى جوارنا!

في تلك الليلة، وبعد السابعة بقليل، كانت إريندرا تمشّط شعر جدتها، حينها هبت رياح محنتها من جديد.

كان الحمالون الهنود وقائد الفرقة الموسيقية يقفون بباب الخيمة في انتظار أن يتسلّموا أجورهم، انتهت الجدة من عدّ رزم النقود بخزانة صغيرة كانت تضعها في حجرها، ثم راجعت دفتراً صغيراً ، بعد ذلك، مدت يدها بحفنة من النقود لأكبر الهنود سناً ، وهي تقول:

- عشرون بيزو عن الأسبوع، يخصم منها ثمانية بيزو في مقابل الطعام، وثلاثة بيزو في مقابل الماء، وخمسون سنتاً من حساب القمصان الجديدة التي

ترتـدونها ، فيصـبح البـاقي ثمانيـة بيـزو وخمسـون سـنتاً.. عِدّها!

أحصى الهندي العجوز النقود ، ثم انسحب هـو ورفاقـه ، وهو ينحني انحناءة توقير واحترام، قائلاً:

- شكراً لك أيتها السيدة البيضاء.

بعـدما انصـرف الهنـود ، أقبـل قائـد الفرقـة الموسـيقية ، فنظرت إليه الجدة ، ثم فتحت دفتر حساباتها ، وألقت نظـرة عليـه ، ثـم التفتـت إلى المصـور الـذي كـان في تلـك اللحظـة يحاول إصلاح وسائد آلة تصويره بحشوات من مادة مطاطية لينة ، وسألته:

- إيه.. ماذا ستفعل الآن؟.. هـل سـتدفع تكلفـة عزف الموسيقى أم ستمتنع؟

ولم يكلف المصور نفسه عناء رفع رأسـه لينظـر إليهـا ، واكتفى بالقول:

- الموسيقى لا تظهر بالصور!

فقالت الجدة:

- ولكنها ترغِّبهم في التصوير!

فقال:

- بل على العكس.. إنها تذكرهم بالجنازة والأموات، ولذلك يظهرون في الصور وعيونهم مغمضة.

فتدخل قائد الفرقة الموسيقية قائلاً:

- ليست الموسيقى هي التي تجعلهم يغمضون عيونهم، وإنما (الفلاش) هو السبب!

فأصر المصور على رأيه وقال:

- بل هي الموسيقى.. فأنت لا تفهم في التصوير.

وأنهت الجدة النزاع قائلة:

- لا تكن بخيلاً!.. ثم انظر كيف كانت تسير الأمور سيراً حسناً مع السيناتور أونيسيمو صانشيز، عندما كان الموسيقيون يصحبونه. ثم اختتمت حديثها مع المصور، قائلة بنبرة حادة:

- ستدفع، وإلا فاذهب وطارد حظك بنفسك..

فليس من المعقول أن تتحمل هذه الطفلة المسكينة عبء كل هذه النفقات وحدها.

فقال المصور، بالنبرة الحادة نفسها:

- سأطارد حظي بنفسي.. فأنا في النهاية فنان!

هزت الجدة كتفيها، وامتعضت، ثم التفتت إلى قائد الفرقة الموسيقية، وسلمته رزمة من الأوراق المالية، تساوي الأرقام المدونة في دفترها، وهي تقول:

- مائتان وأربعة وخمسون معزوفة.. خمسين سنتا لكل معزوفة، يضاف إليها اثنان وثلاثون معزوفة أيام الآحاد والإجازات.. ستين سنتا لكل منها، فيصبح الإجمالي مائة وستة وأربعين بيزو وعشرين سنتاً.

ولم يقبل قائد الفرقة الموسيقية النقود، وقال:

- بل المبلغ مائة واثنان وثمانون بيزو وأربعون سنتاً.. لأن معزوفات (الفالس) مقابلها أكثر.

- ولم؟

- لأنها أكثر مدعاة للحزن والشجن!

- حسناً.. في هذا الأسبوع ستعزفون لنا مقطوعتين مرحتين، في مقابل كل (فالس) تدينني به، فنكون متعادلين.

ولم يفهم قائد الفرقة الموسيقية منطق الجدة، لكنه اضطر إلى قبول النقود، حلاً للغز الأرقام والحسابات.

في هذه اللحظة، هددت الرياح المخيفة بانتزاع الخيمة، ثم سكنت الرياح، وساد بعدها صمت شديد، فسُمعت في الخارج صيحة بومة كئيبة واضحة.

ولم تدر إريندیرا ماذا تصنع لتخفي ضيقها وتوترها، أغلقت خزانة النقود الصغيرة، كما أمرتها جدتها، ثم أخفتها تحت السرير، وسلمت المفتاح لجدتها. فشعرت الجدة عندما لمست يدها برعشة الخوف التي تسري في عروقها، فقالت لها:

- لا تخافي يا صغيرتي.. فالبوم تحلّق دائماً في الليالي العاصفة.

وحينما رأت المصور يتأهب للرحيل، حاملاً آلة التصوير على ظهره، نادته قائلة:

- لتمكث هنا حتى الغد إن أردت.. فالموت يمضي مطلق السراح الليلة.

كان المصور قد سمع هو الآخر صيحة البومة، لكنه لم يغيّر ما عقد العزم عليه.

استدركت الجدة قائلة:

- ابق يا بني.. ولو من أجل مودتي لك!

- لكني لن أدفع شيئاً للموسيقيين.
- أوه.. لا تكن أحمق.. أي شيء إلا هذا!
- أترين؟.. أنت لا تحملين في قلبك أي مودّة لأحد.

فكسا الشحوب ملامح وجه الجدة من شدة الغضب، وصاحت:

- إذن فاضرب في الصحراء وحيداً أيها الوضيع! وتعاظم حنقها وشعورها بالغضب، حتى أنها استمرت تصب عليه اللعنات، فيما كانت إرينديرا تساعدها على النوم.

غمغمت:

- ابن القحبة!.. ما الذي يعرفه ابن الحرام ذاك عما في قلوب الآخرين؟.. ولم تكترث بها إريندير ا، لأن البومة كانت تسيطر على مشاعرها وتناديها بإصرار، خلال فترات صمت الرياح. وكاد القلق والتوتر يخنقانها.

أخيراً استلقت الجدة على فراشها، وتأهبت للنوم، مارة بالطقس الذي اعتادته في دارها القديمة، وفيما كانت

حفيدتها تمروح لها تغلبت على حنقها ، وعادت إلى التقاط أنفاسها العميقة ، وقالت:

- عليك أن تنهضي من النوم في ساعة مبكرة، لتغلي الأعشاب في الماء الذي استحم به، قبل أن يتوافد الناس.

- نعم يا جدتي!

- وحين تتركيني الآن، اغسلي ملابس الهنود المتسخة، وبهذا يمكننا أن نخصم شيئاً من أجرهم في الأسبوع المقبل.

- نعم يا جدتي!

- وارقدي على الفراش ببطء، حتى لا يحل بك التعب، فغداً السبت أطول أيام الأسبوع.

- نعم يا جدتي!

- ولا تنسي إطعام النعامة!

- نعم يا جدتي!

تركت إرينديرا المروحة عند رأس الفراش، وأشعلت شمعتي مذبح أمام الصندوق الذي يضم رفاة الموتى، بينما كانت الجدة الغافية ما تزال تردد أوامرها في فتور:

- لا تنسي أن توقدي الشموع لآل أماديس!
- نعم يا جدتي!

وبدأت الجدة في هذيانها.. وعندئذ أدركت إرينديرا أنها لن تستيقظ، وسمعت الريح تعوي حول الخيمة، لكنها لم تدرك أنها رياح محنتها كذلك. حدّقت في عتمة الليل خارج الخيمة، حتى سمعت نداء البومة من جديد، وتغلّب تشوّقها وحبها الغريزي للحرية على رقية جدتها السحرية، ولم يزد ما خطته خارج الخيمة عن خمس خطوات، حتى صادفت المصور وهو يلم معدات تصويره، ويضعها فوق حامل دراجته ويربطها.

وبعثت ابتسامة التواطؤ التي لا حت على شفتيه السكينة في نفسها.

قال وهو ينصرف:

- لا أدري شيئاً.. لم أرَ شيئاً.. ولن أدفع شيئاً للموسيقيين.

عندئذ انطلقت إرينديرا تعدو في الصحراء، بعد أن حسمت أمرها فابتلعتها ظلال الرياح، حيث كانت البومة تطلق صيحاتها.

في تلك المرة مضت الجدة إلى السلطات المدنية مباشرة وثب مسؤول الأمن بالمنطقة من أرجوحة نومه، حينما وضعت الجدة خطاب السيناتور أمام عينيه.

في نفس الوقت كان والد أوليسيس ينتظر عند الباب.

صاح مسؤول الأمن:

- كيف تتوقعين بحق الجحيم أن أعرف ما يقوله هذا الخطاب؟.. إنني لا أستطيع القراءة!

فقالت الجدة:

- إنه خطاب توصية من السيناتور "اونيسيمو صانشيز".

ودون مزيد من الأسئلة أو الاستفسارات انتزع الضابط بندقية معلقة فوق أرجوحة نومه، وراح يصيح مصدراً الأوامر لرجاله.

وبعد خمس دقائق كانوا جميعاً في عربة عسكرية تنطلق على الطريق نحو الحدود، حيث واجهتهم رياح شديدة معاكسة محت كل آثار الهاربين من فوق الأرض، كان القائد يجلس في الأمام إلى جوار سائق الشاحنة، بينما في الخلف كان يجلس الهولندي والجدة وشرطي آخر.

وبالقرب من بلدة على الطريق، أوقفوا قافلة شاحنات مغطاة بأغطية من القماش السميك لوقايتها من المطر. أزاح الرجال المختفون في مؤخرة الشاحنات طرف الأغطية الواقية، وصوّبوا فوهات مدافعهم الآليةوبنادقهم نحو العربة العسكرية الصغيرة.

سأل الضابط سائق الشاحنة الأولى، عما إذا كانوا قد رأوا شاحنة مزرعة محملة بالطيور. فانتفض السائق وقال غاضباً:

- لسنا عملاء للشرطة، أو عيوناً لكم... نحن مهربون!

ورأى الضابط ماسورة بندقية تمر بالقرب من عينيه، فرفع ذراعيه بحركة لا إرادية، وابتسم وهو يقول بنبرة حادة:

- على الأقل كان يجب أن تكونوا أكثر لياقة، ولا تتجولوا هكذا في وضح النهار.

على واقي الصدمات بالشاحنة الأخيرة عُلّقت لافتة مكتوب عليها: "لا أفكر إلا فيكِ يا إرينديرا!"

ازدادت الرياح عنفاً وضراوة، بينما كانوا يتجهون نحو الشمال، كما ازدادت الشمس لهيباً وحرارة، وتعذر التنفس داخل العربة الصغيرة، بسبب الحر والغبار.

وكانت الجدة هي أول من رأى المصور؛ كان منطلقاً بدراجته في نفس اتجاههم على الطريق، وقد ربط على رأسه منديلاً يحميه من الشمس.

أشارت نحوه، وقالت:

- ها هو.. كان ضالعاً معهما في الجريمة.. ذلك الوضيع!

أمر الضابط الشرطي الذي يجلس في الخلف، بأن يقفز ويتولى أمر المصور، قائلاً له:

- انتهِ منه وانتظرنا.. سنعود إليك سريعاً!

قفز الشرطي من العربة، وصاح مرتين آمراً المصور بالوقوف، لكنه لم يسمعه بسبب الرياح التي كانت تهب في الاتجاه العكسي.

وبينما كانت العربة تواصل مسيرها، مارة بالمصور، أشارت له الجدة إشارة مبهمة، ظنها تحيةً له، فابتسم ولوّح لها بيده رداً على تحيتها. ولم يسمع الطلقة التي خرجت من

فوهة بندقية الشرطي، وطار في الهواء ميتاً، بعد أن نسفت الطلقة رأسه، دون أن يعرف من أين جاءته!

وقبل أن ينتصف النهار، لاح لهم الريش المتطاير في الهواء، فتعرف الهولندي عليه، وتأكد من أنه ريش طيوره الصغيرة.

فغير السائق اتجاه سيره، وانطلق بالعربة في الاتجاه الجديد، الذي حدده لهم الريش المتطاير، وقبل انقضاء نصف ساعة، لاحت لهم شاحنة الطيور الصغيرة في الأفق.

عندما لمح أوليسيس العربة العسكرية في مرآة شاحنته، بذل جهداً كبيراً ليزيد من سرعته، ويزيد من المسافة التي تفصله عنها، إلا أن المحرك لم يسعفه.

كانا قد رحلا دون أن يغمض لهما جفن، وقد أخذ منهما الإعياء والعطش كل مأخذ.

استيقظت إريندريا التي كانت غافية مستندة على كتف أوليسيس فزعة ومذعورة. ثم رأت الشاحنة العسكرية، توشك أن تطبق عليهما، فمدت يدها ببراءة شديدة وبتصميم إلى خزانة صغيرة بالشاحنة أمامها والتقطت مسدساً.

فقال لها أوليسيس:

- لن يجديك نفعاً.. فهو قديم..

فراحت تخبط المسدس في لوحة العدادات أمامها، ثم شوحته من نافذة الشاحنة، في حين جاوزت العربة العسكرية الشاحنة ثم انحرفت فجأة قاطعة الطريق عليها.

في بلدة حدودية أخرى بمقاطعة (ريوهاشا)، نصبت خيمة الحب الجوال، تحت لافتات قماشية مكتوب عليها: (إريندیرا هي الأفضل)... (انطلقوا وعودوا مرة أخرى - إريندیرا في انتظاركم).. (لا حياة ولا بهجة إلا مع إريندیرا)!

وكان الطابور الطويل المتموج، والذي يضم رجالاً من شتى الأعراف والمراتب الاجتماعية، يبدو كحية ضخمة ذات فقرات بشرية تغفو في الأرض الفسيحة أمام الخيمة.

بالقرب من المكان الذي نصبت به الخيمة، كان يوجد حي البغاء والمومسات، الذي تتواجد به نسوة من أربعة أركان الدنيا، تتثاءبن في ضجر، وهنَّ جالسات في دور البغاء تحت المراوح المعلقة بالسقف، والتي كان ضجيجها أكثر من الهواء الذي تجلبه.

كن غافيات في مكانهن، بعد أن هجرهن الزبائن، وفضلّن خيمة الحب الجوال عليهن.

فجأة نهضت إحداهن، ومضت إلى شرفة تكسوها أصص البانسيه، ونظرت إلى طابور الساعين وراء إرينديرا ، ثم صرخت بهم:

- هلموا!.. ما الذي لدى هذه القحبة وليس لدينا؟

فصاح أحد الواقفين بالطابور:

- خطاب توصية من سيناتور!

وضحك الواقفون بالطابور، وراحوا يصيحون ويصفرون، في حين أقبلت أخريات إلى الشرفة، بعد أن اجتذبهن الضجيج. وقالت إحداهن:

- الطابور هكذا منذ بضعة أيام.. من يتصور هذا؟!..

خمسون بيزو للمضاجعة الواحدة.. ونحن لا نجد حتى خمسين سنتاً!

- وفجأة أعلنت على زميلاتها قراراً:

- حسناً.. سأكتشف ما الذي يجذبهم إلى ابنة الشهور الستة تلك!

وردت عليها إحدى زميلاتها:

- وأنا أيضاً.. فهذا أفضل من أن نخط هكذا على مؤخراتنا.

وفي الطريق، انضمت إليهما أخريات، وحينما وصلن إلى خيمة إريندیرا ، كن قد شكّلن موكباً مشاكساً.

هجمن على الخيمة، ودخلنها دون سابق إنذار، واستخدمن الوسائد في مطاردة الرجل الذي كان عاكفاً على إنفاق حيويته، بخير طريق يعوض به نقوده، ثم انتزعن إريندیرا من الفراش، وحملنها فوق أكتافهن إلى الطريق.

صرخت الجدة:

- هذه فضيحة!.. ماذا جرى لكن يا زمرة الخائنات.. يا قاطعات الطريق.

ثم التفتت إلى طابور الرجال المنتظم أمام الخيمة، وقالت:

- وأنـــتم أيهـــا البغـــال.. مـــاذا دهـــاكم، ألا تحركون ساكناً لوقف هذا الهجوم على طفلة مسكينة لا حول لها ولا قوة.. اللعنة عليكم يا حثالة!

وظلت تصرخ، وتخبط بعصاتها التي تتوكأ عليها كل من طالته يدها، لكن صراخها وغضبها ابتلعته قهقهات الحشد وصفيره الساخر.

لم تستطع إريندرا النجاة من الفضيحة والسخرية، إذ حالت دون ذلك سلسلة تقييد الكلاب التي استخدمتها الجدة لتقييدها بها في الفراش منذ محاولتها الهرب.

لكن النسوة لم يتعرضن لها بأذى، فقط عرضنها على طاولة مرتفعة ذات ستارة، وكأنها مذنب مقيد بالسلاسل، إلى أن يتوب عن ذنبه، أجلسنها كالتابوت وسط الميدان الرئيسي للبلدة، بحيث يراها كل من راح أو جاء. فالتفت حول نفسها، وقد حجبت وجهها، دون أن تبكي أو تصرخ. وظلت على هذا الوضع تحت الشمس الحارقة، تعض في حنق، وبشعور عارم بالخجل والعار، سلسلة قدرها التعس، إلى أن أشفق عليها أحدهم وغطّاها بقميصه.

بعد تلك الحادثة، اكتفت الجدة بما جمعته من مال، في تلك البلدة الحدودية، وراحت تجوب هي وحاشيتها مدناً وقرى أخرى في الصحراء.

كانوا يتحركون في موكب يتشكل من عربات تجرها الثيران، حُمِّلت عليها أشياء تماثل تلك التي ضاعت في كارثة الدار المحترقة: تماثيل نصفية بديعة، ساعات حائط نادرة ذات أحجام مختلفة، بيانو قديم، جرامفون، واسطوانات لأغنيات تبعث الحزن في النفوس.

وكان فريق من الهنود يقوم بمهمة العناية بتلك المنقولات. كما كانت فرقة موسيقية تتقدمهم لتعلن عن مقدمهم الظافر.

وكانت الجدة تتنقل محمولة في محفة يزينها أكاليل من الزهور الصناعية والورق الملون، وهي تمضغ الحبوب التي تحتفظ بها في محفظة نقودها، كانت تبدوذات حجم أضخم من حجمها الطبيعي، لأنها كانت ترتدي تحت ثوبها صدرية من قماش الأشرعة منتفخة بما تخفيه داخلها من سبائك ذهبية.

وإلى جانب الجدة كانت تسير إرينديرا مرتدية ثوباً مزركشاً ذا ألوان كثيرة، وتضع على صدرها حلى زائفة براقة، وتجر وهي تمشي سلسلة الكلب المقيدة بها.

حين غادروا البلدة الحدودية قالت لها الجدة:

- ليس لديك ما يدعو للشكوى.. فعندك ثياب ملكة، وفراش وثير، وفرقة موسيقية خاصة بك، وأربعة عشر هندياً يخدمونك.. أليس هذا رائعاً.

- نعم يا جدتي!

- حينما أموت.. ولا أكون إلى جوارك لن تكوني تحت رحمة أي رجل من الرجال، إذ ستكون لك دار في مدينة كبيرة.. وستكونين حرة وسعيدة.

كانت تلك رؤيا مستقبلية جديدة، لم يسبق للجدة أن تنبأت بها، ومن ناحية أخرى، لم تعد الجدة تتحدث عن الدين الأصلي الذي تشعبت تفاصيله، وتضخمت أقساطه، مع زيادة تكلفة ممارسة العمل ذاته.

رغم ذلك لم تصدر عن إرينديرا تنهيدة واحدة تكشف لأحد عن أفكارها.

أذعنت في صمت، وهي تستمع إلى جدتها تشدو في أذنها بحلم المستقبل، كما لو كانت تقرأ ملامحه في أوراق اللعب.

ذات أصيل، وفيما كانتا تخرجان من وادٍ ضيق يكتم الأنفاس، رصدتا رياح أكاليل غار عتيقة، وسمعتا مقاطع من أحاديث جامايكا، وشعرتا برغبة عارمة في الحياة، وأحستا بقلبيهما ينبضان. كانتا قد بلغتا البحر.

قالت الجدة، وهي تتنفس هواء الكاريبي المتألق بالضياء كالبللور، بعد أن أمضت نصف عمرها في المنفى:

- ها هو، ألا يروق لك؟
- نعم يا جدتي!

ضربتا الخيمة هناك. وأمضت الجدة الليل في الحديث دونما أحلام، وفي بعض الأحيان كانت تمزج حنينها للماضي باستشراف المستقبل.

أغفت في وقت متأخر من الليل عما اعتادت، واستيقظت هادئة الأعصاب على صوت البحر، وحينما راحت إرينديرا تحممها مضت في الإدلاء بنبؤاتها المستقبلية. قالت:

- ستكونين سيدة جميلة، رفيعة المقام، يجلها أولئك الذين تشملهم بحمايتها، وتحترمها السلطات العليا، ولسوف يرسل قباطنة السفن ببطاقات البريد إليك من كل موانئ الدنيا.

لم تكن إرينديرا مصغية إليها، في حين كان الماء الساخن المعطر بالأوريجانزا ينصب في حوض الاستحمام عبر أنبوب يغذيه من الخارج، فتتلقاه إرينديرا في وعاء جاف، ثم تصبه على جدتها بإحدى يديها، بينما تدلكها بالصابون باليد الأخرى.

كانت الجدة تقول:

- ستطير شهرتك من فم إلى فم، وتعبر سلسلة جزر الانتيل إلى أرض هولندا، وستكون دارك أكثر أهمية من قصر الرئاسة، لأن شؤون الحكم ستناقش فيه، كما سيتحدد فيه أيضاً مصير الأمة.

وفجأة توقف الماء عن الانسياب، فخرجت إرينديرا من الخيمة لترى ماذا حدث، فرأت الهندي المكلف بتسخين وصب الماء، عاكفاً على تقطيع مزيد من الأخشاب إلى جوار المطبخ.

قال الهندي:

- لقد نفدت الأخشاب.. كما أن علينا أن نبرّد مزيداً من الماء.

فمضت إلى الموقد الموضوع فوقه إناء ضخم تغلي فيه أعشاب الأوريجانزا ولفت يدها بقطعة قماش، وجرّبت أن ترفع الوعاء من فوق النار وحدها، فوجدت أنها قادرة على ذلك دون مساعدة الهندي، فقالت له:

- إذهب أنت.. وسأبرِّد أنا الماء وأصبه.

وانتظرت حتى غادر المكان، ثم رفعت إناء الماء المغلي عن الموقد بشيء من العناء، ثم قرّبته من الأنبوب الموصِّل إلى حوض الاستحمام، وأوشكت أن تصب الماء المغلي فيه، حين سمعت صيحة جدتها:

- إرينديرا!

وبدا الأمر كما لو كانت الجدة قد رأتها، وعرفت ما كانت تنتويه، فتراجعت خائفة في اللحظة الأخيرة، وقالت:

- أنا قادمة يا جدتي.. إني أبرّد الماء.

في تلك الليلة، استلقت إرينديرا على فراشها، وراحت تراقب جدتها التي كانت هي الأخرى مستلقية على

فراشـها ، تواصـل هـذيانها ، وهــي غـارقـة ـ في النـوم، مـرتديـة قلادتها الذهبية.

كـانـت ترمـق جـدتها بعيـنين تحاكيـان عيني قطـة ، ثـم غلبهـا النعـاس، فنامـت كـالغريق وذراعاهـا معقـودان علـى صـدرها ، وعيناهـا مفتوحتـان، ونـادت بكـل قـوة صـوتها الكامن في أعماقها:

- أوليسيس!

استيقظ أوليسيس فجـأة وهـو نـائم في غرفتـه بالمزرعـة ، على صوت إريندير‍ا الذي سمعه بكل وضوح، إلى درجة أنـه راح يبحث عنها في ظلام غرفته.

وبعـد لحظـة تأمـل لملـم ثيابـه ، وربطهـا معـاً في حزمـة ، ومعها أحذيته ، وغادر غرفة نومه. وحين عبر الشرفة ، فاجأه صوت أبيه:

- إلى أين تمضي يا أوليسيس؟

فرد عليه ـ بعد أن تبيّنه في ضوء القمر:

- إلى الدنيا الواسعة!

- لـن أوقفـك هـذه المـرة ، لكـني أحـذرك مـن شيء واحد؛ فحيثما تمضي ستتبعك لعنتي،

- ليكن!

فرمقه الهولندي بنظرة فيها كثير من الدهشة، في حين انتاب أوليسيس شعور بالقوة، عندما لمس عزم أبيه الضعيف، ومضى.

بينما كانت أمه واقفة خلف أبيه، الذي دمدم حين سمع صوت البوابة وهي تغلق:

- سيعود بعد أن تقهره الحياة بأسرع مما تظنين.

فتنهدت الأم قائلة:

- أنت غبي.. لن يعود أبداً!

ولم يضطر أوليسيس في هذه المرة إلى السؤال عن مقر إرينديرا. وعبر الصحراء متنقلاً في شاحنات كثيرة، واضطر أحياناً إلى السرقة ليأكل، أو ليدفع مقابل المأوى، ومرات عديدة سرق لمجرد السرقة، حباً في المغامرة، إلى أن عثر على الخيمة في بلدة صغيرة على الساحل.

كانت مبانيها الزجاجية تكسبها ملمح مدينة يلفها النور، حيث تترامى تحيات الوداع البحرية من السفن التي تقلع في طريقها إلى جزيرة أروبا.

كانت إريندرا ترقد في فراشها وهي مقيدة بسلسلة الكلب، في ذات الوضع الذي يتخذه غريق على الشاطئ الذي نادت أوليسيس منه.

وقف أوليسيس يتطلع إليها بنظرات حادة أيقظتها من غفوتها. وعندئذ تبادلا قبلة متلهفة في الظلام، داعب أحدهما الآخر، ثم نزعا ثيابهما في ضعف ورقة صامتة وسعادة خفية، وبادلته الحب بأكثر مما عهدا في أي مرة سابقة.

عند الطرف الآخر من الخيمة، تقلبت الجدة النائمة في فراشها محدثة جلبة هائلة، وراحت تتحدث في صخب:

"كان ذلك في الوقت الذي وصلت فيه السفينة اليونانية، كان طاقمها مكوناً من رجال أصابهم الجنون، يبعثون البهجة والسرور في أفئدة النساء، ولا يدفعون لهن مالاً، وإنما قطعاً من الإسفنج.. إسفنج حي، يسير فيما بعد ضارباً في أنحاء الدور مصدراً الانين، كالمرضى في مستشفى، ودافعاً الأطفال إلى البكاء حتى يرتووا بقطرات دمعهم".

اختلجت وقعدت في الفراش، ثم صاحت:

"كان ذلك حينما وصل، يا إلهي.. كان أقوى وأطول وأكثر تدفقاً بالفتوة والرجولة من أماديس".

في تلك الأثناء كان أوليسيس ـ الذي لم يبد اكتراثاً بهذيان الجدة ـ يحاول الاختباء، فهدأته إريندريا قائلة:

- لا تخف.. ففي كل مرة تصل إلى هذا الجزء من قصتها تنهض في الفراش، لكنها لا تستيقظ.

انحنى أوليسيس على كتف إريندريا، بينما استمرت الجدة في هذيانها:

"كنت أغني مع البحارة في تلك الليلة، وظننت أن زلزالاً قد وقع، ولابد أنهم قد ظنوا مثل ظني، لأنهم انطلقوا في العدووهم يصرخون، وقد أوشك الضحك أن يقتلهم. ووحده بقي في الفراش خلف الستارة المرقشة بالنجوم. أذكر كما لو كان الأمر قد وقع بالأمس.. كنت أغني الأغنية التي يتغنى بها الجميع في تلك الأيام، بل وكانت الببغاوات أيضاً ترددها".

ثم رقدت وتمددت على الفراش، وراحت تغني كما لا يمكن للمرء أن يغني إلا في الأحلام، أشعاراً تفيض بالمرارة:

إلهي.. أوه، يا إلهي

أعد إليَّ البراءة التي كانت لي

لأحس بحبه يغمر بدني كله منذ البداية مجدداً..

وهنا فقط أثير اهتمام أوليسيس بحنين الجدة إلى ماضيها، حين واصلت هذيانها:

"كان يقف هناك، على كتفه ببغاء طويل الذيل، وعلى كتفه الآخر بندقية قصيرة الماسورة، بنفس الهيئة والشكل الذي كأنه "جواتارال" عندما وصل إلى (جويانا).. أحسست بأنفاس موته حين وقف أمامي وقال: لقد جبت العالم آلاف المرات، ورأيت نساء من كل الأمم، وبمقدوري أن أحدثك حديث خبير محنك بأنك أكثر نساء الأرض تيهاً ولطفاً وحسناً".

رقدت من جديد، وكفت عن هذيانها المتواصل، ثم بكت فالتزم أوليسيس وإرينديرا بالصمت لوقت طويل، وفجأة تساءلت إريانديرا دون أي اختلاجة في صوتها:

- هل تجرؤ على قتلها؟!

فاستولت الدهشة على أوليسيس، ولم يدر بم يجيب، ثم قال:

- لا أعرف.. أتجرؤين أنت؟

قالت:

- لا أجرؤ.. فهي جدتي!

وتطلع أوليسيس من جديد إلى البدن الهائل الغارق في النوم، كما لو كان يقدّر مدى القوة الحيوية السارية فيه، ثم حسم الأمر قائلاً:

- من أجلك يا إرينديري أفعل أي شيء!

اشترى رطلاً من سم الفئران، كما اشترى فطيرة كبيرة، ثم قام بخلط السم بالقشدة ومربي الفراولة، ثم حشا الفطيرة بجزء من ذلك الخليط القاتل، بعدما أزال حشوها الأصلي، ثم غطى سطح الفطيرة بالجزء المتبقي من الخليط السام، وإكمالاً لجبلته، زرع بالفطيرة اثنين وسبعين شمعة صغيرة، ذات لون أحمر.

كانت الجدة تجلس على عرشها، وهي تلوّح بعصاها مهددة، حينما رأته يقبل عليها حاملاً الفطيرة في يده، فصاحت:

- أيها الشيطان الصفيق، كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا؟!

فاحتمى أوليسيس بملامحه الملائكية، وقال:

- جئت أطلب عفوك وغفرانك في هذا اليوم... يوم ميلادك! فتخلّت عن حذرها لدى سماعها كذبته التي تركت فيها أثراً عميقاً، وأمرت بإعداد المائدة للاحتفال، واجلسته إلى يمينها، بينما راحت إريندیرا تخدمهما. وبعد أن نفخت الشموع بنفخة واحدة عاصفة، قطعت الفطيرة وقسمتها قسمين متساويين، وقدمت النصف إلى أوليسيس قائلة:

- للرجل الذي يعرف كيف ينال العفو، نصف الجنة.. تفضَّل!

فقال لها:

- لست مولعاً بالحلوى.. كلي أنت!

فقدمت قطعة من الفطيرة لإريندیرا، التي تناولتها منها وحملتها معها إلى المطبخ، وهناك ألقتها وسط القمامة.

وهكذا التهمت الجدة وحدها الفطيرة بكاملها تقريباً، وهي تصدر تنهيدة استمتاع في كل مرة تضع قطعة منها في فمها.

وبعد أن التهمت آخر قطعة من الفطيرة، نظرت إلى أوليسيس نظرة رضا وامتنان، ثم لملمت الفتات الذي تساقط منها فوق المائدة، ودسّته في فمها.

وبهذا تناولت قدراً من السم يكفي لإبادة جيل بأكمله من الفئران. ورغم ذلك فقد راحت تعزف على البيانو القديم، وتغني حتى منتصف الليل. ثم نهضت من أمام البيانو،واستلقت في فراشها، لتنال قسطها المعتاد من النوم. وكان الشيء الوحيد الذي طرأ عليها هو حشرجة تحاكي صوت مقعد هزّاز في تنفسها.

عكف أوليسيس وإرينديرا على مراقبتها من الفراش الآخر، في انتظار لحظات احتضارها، إلا أن صوتها كان مفعماً بالحياة ومتدفقاً، حينما بدأت في هذيانها المعتاد، وهي راقدة:

"لقد أصابني الجنون.. يا إلهي!.. ثَبَّتُّ عارضتين خشبيتين في باب غرفة نومي من الداخل، حتى لا يستطيع الدخول، كما وضعت طاولة الزينة والكرسي والمنضدة خلف الباب.. وكل ما فعله لإسقاط تلك التحصينات هو الخبط على الباب بخاتمه. فتباعدت الطاولة والكرسي والمنضدة

عن الباب، كما انفصلت العارضتان الخشبيتان من تلقاء ذاتهما".

تطلعا إليها بدهشة متعاظمة، في حين كان هذيانها يتخذ بُعداً أكثر عمقاً ومأساوية:

"أحسست أني سأموت.. بلّلني عرق الخوف، توسلت في أعماقي أن يُفتح الباب، ولا يُفتح.. وتضرعت للرب أن يدخل ولا يدخل، وسألته ألا يبتعد أبداً.. وألا يعود أبداً، حتى لا أضطر لقتله".

مضت تكرر تفاصيل مأساتها ساعات طويلة، كأنما عاشتها من جديد في حلمها. وقبيل الفجر تدحرجت في الفراش بحركة هائلة الضجيج، وتداعى الصوت في غمار فيض من نوبات البكاء:

"حذّرته فضحك، وحذرته مرة ثانية فضحك من جديد، إلى أن فتح عينيه في رعب قائلاً: آه يا ملكة!.. آه يا ملكة! ولم يكن صوته نابعاً من فمه، وإنما عبر الجرح الذي أحدثته السكين في حلقه".

قبض أوليسيس على يد إريندیرا وتشبث بها، وقد أفزعته الذكرى المخيفة التي استحضرتها الجدة، ثم قال ـ وقد اعتراه الذهول:

- يا للعجوز القاتلة!

ولم تبد إريندیرا أي اكتراث به لأن الفجر كان في تلك اللحظات يطل على الدنيا.

قالت:

- اذهب الآن.. فسوف تستيقظ حالاً

فقال مندهشاً:

- إن بدنها تسري فيه حياة تفوق ما في بدن الفيل!.. هذا لا يتصوره عقل.

رمقته بنظرة قاطعة كالسكين، ثم قالت:

- المشكلة أنك لا تصلح مطلقاً لقتل أحد.

بلغ تأثره من فجاجة اللوم والتوبيخ حداً كبيراً، جعله ينطلق مغادراً الخيمة على الفور.

في حين واصلت إريندیرا تحديقها في الجدة الغافية، بكل مقت وغضب، نابعين من إحباطها.

ثم فتحت الجدة عينيها ، وتطلعت إلى حفيدتها بابتسامة رائقة ، وقالت:

- ليكن الله معك ياطفلتي!

كان التغير الوحيد الملحوظ، هو بداية الاختلال في مسار الحياة اليومية المعتاد.

كان اليوم هو الأربعاء، إلا أن الجدة رغبت في ارتداء زي الأحد ، وقررت ألا تستقبل أحداً من الزبائن، قبل الحادية عشرة. وطلبت من حفيدتها أن تطلي لها أظافرها بلون العقيق، وأن تزين شعرها على نحو مهيب.

قالت ـ مندهشة:

- لم أشعر من قبل بمثل هذه الرغبة القوية في أن تلتقط لي صورة.

راحت إريندرا تمشط لها شعرها ، وما أن وضعت المشط في شعرها ، وشدته حتى تعلقت خصلات كثيرة منه في أسنانه.

فمدت المشط إلى جدتها لتراه، فنظرت إليه الجدة، وانزعجت، ثم مدت يدها إلى شعرها ، فتعلق بأصابعها جزء آخر من الشعر، فألقته على الأرض، ومدّت يدها من

جديد، فانتزعت جزءاً آخر كبيراً.. ثم راحت تشد شعرها بكلتا يديها، لتنتزع خصلات كبيرة منه بسهولة، وتلقيها في الهواء، وهي تضحك في ابتهاج يستعصي على الفهم، إلى أن بدت رأسها كثمرة جوز الهند المنتزع عنها قشرتها.

لم ترَ إريندرا أوليسيس، ولم تسمع عنه شيئاً، إلا بعد أسبوعين، حينما تناهي إلى سمعها صيحة البومة خارج الخيمة.

كانت الجدة في ذلك الوقت تعزف على البيانو، وهي مستغرقة في حنينها إلى الماضي، وغائبة عن الواقع، بشعرها المستعار المصنوع من ريش الطيور الوهاج.

لبّت إريندرا نداء البومة، ومضت عبر الشجيرات القليلة المزروعة حول الخيمة، ثم انطلقت تعدو في الاتجاه الذي كان أوليسيس ينتظرها فيه.

وبقلبين يسيطر عليهما الضيق والسأم والكآبة، راحا يراقبان اللهب الأزرق الضئيل الزاحف على ذبالة الصوت المنبعث من الخيمة.

عبرا الفراغ المظلم، واقتربا من الخيمة ثم قال أوليسيس:

- سِدِّي أذنيكِ!

وسدّا آذانهما معاً، ولكن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، إذ لم يدوِّ صوت انفجار.

ثم بعد لحظات، توهجت الخيمة من الداخل بوهج مشع، وانفجرت في صمت، مختفية في دوامة من البارود المبلل.

تجرأت إرينديرا، ودخلت الخيمة، وفي ظنها أن جدتها لا بد أن تكون قد هلكت، فوجدتها بشعرها المستعار، أكثر تدفقاً بالحياة، وهي تحاول ـ بعدما تلطّخت بالسواد، إطفاء الحريق بغطاء الفراش الذي تمزّق.

إنسلّ أوليسيس مبتعداً عن الخيمة، تحت غطاء من صيحات الهنود الذي كانوا مرتبكين ولا يدرون ماذا يصنعون، وقد أثارت أوامر الجدة المتضاربة حيرتهم واضطرابهم.

وحينما أفلحوا أخيراً في التغلب على ألسنة اللهب المتصاعد وزال الدخان، قالت الجدة:

- يبدو هذا كما لو كان عملاً من أعمال الشيطان، فالبيانو لا ينفجر هكذا ببساطة!

وراحت في حيرتها تقلّب شتى الأفكار، لعلها تصل إلى أسباب تلك الكارثة الجديدة.

لكن مراوغات إريندريا، وعدم إكتراثها للأمر، أفلحا في بلبلتها، فلم تستطع اكتشاف أدنى خلل في سلوك حفيدتها، كما لم يخطر ببالها وجود أوليسيس، أو تدبيره للحادث.

ظلت مستيقظة حتى الفجر، وهي تغزل خيوط افتراضاتها، وتحسب حساباتها، ثم أغفت قليلاً، لكن دون أن تستغرق في النوم.

في الصباح، حين نزعت إريندريا عنها صدريتها ذات السبائك الذهبية، وجدت قروحاً من أثر الحريق على كتفيها، كما وجدت آثار خدش على صدرها.

وحينما شرعت في وضع بياض البيض على قروحها، فوجئت بقولها:

- عندي ما يقض مضجعي، ويزعجني كثيراً، وعلاوة على ذلك فقد تراءت لي أحلام غريبة!

وبذلت جهداً كبيراً في التركيز، لاستحضار صور تلك الأحلام، إلى أن قالت:

- كان طاووساً في أرجوحة بيضاء.

وبدت إريندريرا مندهشة، لكنها سرعان ما استردت التعبير المألوف الذي يكسو ملامح وجهها، ثم قالت:

- هذا فأل حسن يا جدتي.. فالطواويس في الأحلام دليل على طول العمر.

فقالت الجدة:

- فليسمع منك الرب.. لأننا عُدنا إلى حيث كنا..وعلينا أن نبدأ من جديد!

لم يتغيّر التعبير المرتسم على جه إريندريرا، وخرجت من الخيمة، وهي تحمل في يدها صحناً مليئاً بالكمادات. تاركة جدتها بجسدها العاري المدهون ببياض البيض، ورأسها الملطّخ بالخردل.

كانت تضع مزيداً من بياض البيض في الصحن، حينما رأت عينا أوليسيس خلف الموقد، تماماً كما رأته أول مرة وراء الفراش.

لم تفاجأ، وإنما قالت له بصوت مرهق:

- لم تفلح إلا في زيادة ما أنا مدينة به!

طغت سحابة من القلق فوق عيني أوليسيس، وتجمّد في مكانه، ثم حدّق فيها صامتاً وهي تكسّر البيض، لتفصل الصفار عن البياض الذي تستخدمه في علاج قروح الجدة.

كانت ملامحه تكتسي بتعبير ثابت من النفور المطلق، وبعد لحظات تحركت عيناه، وجال بصره بالأشياء الموجودة بعريشة سعف النخيل: الأواني التي تتدلى فوق الجدار.. السكين الكبيرة التي يلمع نصلها الفولاذي، خيوط الثمار المجففة المعلقة.

وقف صامتاً للحظة، ثم تحرك، وتناول السكين في يده.

لم تنظر إليه إرينديرا، لكنها قالت له، وهو يغادر المطبخ:

- كن حذراً، لأنها تلقّت تحذيراً غيبياً من قرب انتهاء أجلها.. فقد رأت وهي نائمة طاووساً في أرجوحة بيضاء!

رأت الجدة أوليسيس مقبلاً عليها، فبذلت جهداً كبيراً حتى تمكنت من النهوض دون الاستناد على عصاها، ثم رفعت ذراعيها في محاولة للدفاع عن نفسها، وصاحت:

- ماذا ستفعل يا مجنون؟!

وثب أوليسيس عليها، وأغمد السكين في صدرها العاري، فأنّت أنيناً شديداً، ثم سقطت على الأرض، وهي تحاول خنقه بذراعيها القويتين العاريتين، ودمدمت:

- يا ابن الكلبة!.. تأخرت كثيراً في اكتشاف وجه الملاك الزائف في ملامحك.

وعجزت عن إضافة المزيد من الكلمات، لأن أوليسيس نجح في انتزاع السكين من صدرها، وطعنها بها مرة ثانية في جنبها.

أطلقت أنيناً مكتوماً، فيما كانت تطوّق أوليسيس بذراعيها بمزيد من القوة، فطعنها مرة ثالثة، دونما أي شفقة.

فانفجر دمها ولطّخ وجهه: لم يكنٍ في الواقع دماً.. كان سائلاً دهنياً كثيف القوام، لامعاً.. ذا لون أخضر شبيه بعسل النعناع.

ظهرت إريند يرا عند مدخل الخيمة، وفي يدها الصحن الممتلئ ببياض البيض.. راقبت الصراع الدموي الدائر بين جدتها وأوليسيس، بسلبية المشارك في الجرم!

تشبثت الجدة بجسم أوليسيس، بكل ما تبقى لها من قوة كانت تبدو هائلة.. ضخمة، وهي تهدر بالألم والحنق.

وكانت ذراعاها، وساقاها، بل وحتى رأسها المجرد من الشعر، تكتسي كلها بلون الدم الأخضر!

وكان صوت تنفسها الهائل، الذي يصك الآذان، وحشرجات احتضارها، تملأ المكان بأسره.

أفلح أوليسيس في تحرير يده القابضة على السكين، من قبضة الجدة التي تحتضر، ثم مزق بطنها بطعنات قوية، فأغرق دمها المتفجر ذا اللون الأخضر جسده كله.

حاولت الجدة الوصول إلى الهواء الذي كانت في مسيس الحاجة إليه في تلك اللحظات، لتواصل الحياة، لكنها لم تفلح، وسقطت على وجهها فوق الأرض.

ابتعد أوليسيس عن الذراعين اللذين خبت فيهما الحياة، ثم طعن الجسد الهائل الذي تكوّم على الأرض، طعنة أخيرة.

عندئذ وضعت إريندیرا الصحن الذي كان في يدها، على الأرض، وانحنت فوق جدتها تفحصها دون أن تلمسها.

وحينما تأكدت بأنها قد فارقت الحياة، اكتست ملامح وجهها فجأة بكل النضج الذي لشخص أكبر منها عمراً، والذي لم تمنحها إياه سنوات عمرها العشرين الحافلة بالمحن.

وبحركة سريعة، مدت يدها وانتزعت صدرية جدتها ذات السبائك الذهبية، ثم غادرت الخيمة.

ظل أوليسيس جالساً بالقرب من جسد الجدة الهامد، الذي انعدمت منه الحياة.

كان منهكاً، وهو يحاول تنظيف وجهه، لكنه كان كلما حاول، ازداد تلطخه بتلك المادة الحية الخضراء، التي بدت كما لو كانت تتدفق من أصابعه.

وحينما لمح إريندیرا تمضي مسرعة بالصدرية الذهبية في يدها، أدرك ما هو فيه.

صاح يناديها، لكنه لم يتلقَ رداً منها، فتحرك نحو مدخل الخيمة، فرآها تعدو، متجهة نحو الشاطئ بعيداً عن المدينة.

فراح يصيح ويناديها بصيحات ملؤها الألم، وهو يعدو خلفها.. لم تكن صيحاته حينئذ صيحات عاشق، وإنما

صيحات ابن لأمه. وغرق تحت إحساسه العميق المخيف بأنه قتل إمرأة، دونما عون من أحد.

لحق به هنود الجدة، وهو منكفئ على وجهه، على أرض الشاطئ، يبكي من العزلة والخوف.

لم تكن إرينديرا قد سمعت أياً من صيحاته.. كانت تعدو في اتجاه الريح، أسرع من عدو الغزالة، ولذلك لم يستطع أي صوت من أصوات هذا العالم، أن يوقفها.

ودون أن تلتفت وراءها، انطلقت في عدوها، متجاوزة حفر الصخر الملحي، بعيداً عن الشاطئ، إلى أن انتهى المجال الطبيعي للبحر، وبدأت الصحراء.

واصلت العدو بالصدرية الذهبية، متجاوزة الرياح اللافحة، ولحظات الغروب التي لا تنتهي.

ولم يسمع عنها أحد شيئاً مرة ثانية.

ماريا دوس براثيرس

وصل مندوب مؤسسة دفن الموتى في الوقت المحدد بالضبط، حين كانت "ماريا دوس براثيرس" ماتزال بروب الحمام ورأسها مليء بالرولوهات*. غير أنها وجدت لنفسها بالكاد وقتاً لتضع وردة حمراء فوق أذنها كيلا تبدو منفرة كما كانت تشعر.

وتأسفت على حالتها عندما فتحت الباب ورأت مندوب المؤسسة ليس رجلاً كئيباً كما توقعت أن يكون تجار الموت، بل شاباً خجولاً يرتدي سترة ذات مربعات و(كرافتة) بها عصافير ملونة. ولم يكن يحمل معطفاً على الرغم من ربيع برشلونة المتقلب المعروف بأمطاره المصحوبة بالرياح التي تجعله أشد إزعاجاً من الشتاء.

جلست "ماريا دوس براثيرس" وهي تشعر بخجل شديد، على الرغم من تعوّدها على استقبال الكثير من الرجال في مختلف ساعات اليوم. كانت قد أكملت لتوّها السادسة والسبعين من عمرها، وكانت مقتنعة بأنها ستموت قبل

* الرولوهات: اسطوانات صغيرة من السلك تستخدم في لف الشعر.

حلول أعياد الميلاد، وعلى الرغم من ذلك، فإنها كانت على وشك إغلاق الباب في وجه تاجر الدفن، طالبة منه أن ينتظر قليلاً، حتى ترتدي ملابسها وتستقبله كما يجب، ولكنها عدلت عن الفكرة لظنها بأنه سوف يتجمد من البرد أمام الباب، فدعته إلى الدخول قائلة:

- أرجو المعذرة على مظهري هذا الذي يشبه مظهر الخفاش، ولكنني أعيش في "كتلونيا" منذ خمسين عاماً، وهذه هي أول مرة يصل فيها إنسان في موعده المحدد بالضبط.

كانت تتكلم اللغة الكتلونية بدقة تامة، وبنقاء قديم مهجور نوعاً ما، ومع ذلك فإنها لم تتخلص تماماً من موسيقية لغتها البرتغالية المنسية، ورغم كبر سنها وخصلات شعرها الشبيهة بالأسلاك، فإنها مازالت تلك المرأة السمراء موفورة الحيوية ذات الشعر النابت والعينين الصفراوين الشرستين، وكانت قد فقدت شعورها بالرأفة على الرجال منذ زمن طويل.

لم يصدر عن مندوب الدفن الذي استعان على رؤية طريقه إلى داخل البيت بضوء الشارع الذي ينفذ إلى

الـداخل، أي تعليـق، بـل نظـف حـذاءه في الحصـيرة الجـوت الموضـوعة أمـام عتبـة البـاب، ثـم قبَّـل يـدها وانحنـى احترامـاً وأدباً.

قالت ماريا دوس براثيرس، بقهقهة مجلجلة:

- إنك رجل شبيه برجال زماني.. اجلس.

ورغم حداثته في هذه المهنة، فإنه كان يجيدها تمامـاً، ولهـذا فإنــه لم يســتغرب مــن ذلــك الاســتقبال في الثامنــة صباحاً، وخاصة من امرأة عجوز لا تعـرف الـرأفة، بـدت لـه للوهلــة الأولى وكـأنهــا مجنونــة مشــردة مــن أمريكــا اللاتينية، ولهذا فإنه جلس على بعد خطوات من البـاب دون أن يدري ماذا يقول، بينمـا كانـت هـي تـزيح سـتائر النوافـذ المخملية.

كـان إشراق شمس الـربيع الخفيفة ينير أركـان الصـالة الصغيرة التي كانت تبدو وكأنها معرض "انتيكـات". كـل مــا كـــان يوجــد هنــاك لم يكــن ســوى أدوات الاســتعمال اليـومي لا أكثـر ولا أقـل، وكـل منهـا كانـت موضـوعة في مكانهـا الطبيعـي وبطريقـة تـنم عـن ذوق سـليم يجعـل مـن

الصعب العثور على دار أخرى أحسن تنظيماً في مدينة قديمة وغامضة مثل برشلونة.

قال مندوب مؤسسة الدفن:

- معذرة.. يبدو أنني أخطأت العنوان!

فقالت له:

- ليتك فعلت.. ولكن الموت لا يخطئ!

وفوق مائدة الطعام، بسط المندوب ورقة مطوية عدة طيات، بها أجزاء ملونة بمختلف الألوان، وعلى كل جزء صلبان وأرقام، فبدت كأنها خريطة بحرية أو لوحة ألغاز، وأدركت "ماريا دوس براثيرس" أنها الخريطة الخاصة بمدافن "مونتجوس" الشاسعة، وتذكرت بفزع قديم جداً مدافن (ماناوس) تحت وابل أمطار اكتوبر، حيث كانت حيوانات (التابير)* تعيث بين قبور بلا أسماء وتوابيت لمغامرين أموات مغطاة بزجاج فلورنسي.

في صباح أحد الأيام حين كانت صغيرة جداً، استيقظ الناس على فيضان نهر الأمازون الذي تحول إلى بحيرة كريهة، وشاهدت يومها توابيت مهشمة طافية في فناء

* التابير: حيوان يعيش في غابات أمريكا الجنوبية، يشبه الخنزير البري، له أنف طويل يشبه الخرطوم.

الـدار، تطـل مـن شـقوقها أجـزاء مـن ملابـس وشـعـر المـوتى، وكـانـت تلـك الـذكـرى هـي السـبب في اختيارهـا مـدافن (مونتجوس) المرتفعة عـن الأرض، مكـانـاً لـدفنها، بـدلاً مـن مدافن (سـان خرباسيو) القريبة والتي تضم رفاة عائلتها.

قالت:

- أريد مكـاناً لا يصله الماء أبداً.

فقـال المنـدوب، وهـو يشـير إلى مكـان محـدد علـى الخريطة بمؤشر كـان يحمله في جيبه:

- هذا هو المكان المناسـب.. فـلا يمكـن لأي بحـر أن يرتفع إلى هذا المستوى.

أخـذت تنظـر إلى الخريطـة الملونـة، وتتعـرف علـى اتجاهاتها، إلى أن عثرت على المدخل الرئيسي، حيث توجد المقابر الثلاثة المتجاورة والمتشابهة، التي لا تحمـل أي اسـم، والمـدفون فيهـا "بوينـا بنتـورا دوروتـي"* واثنـان آخـران مـن الزعماء الفوضويين الذين قتلوا في (الحرب الأهلية).

---

* زعيم أسباني فوضوي شهير.

في كل ليلة كان هناك من يكتب أسماءهم على الشواهد الحجرية البيضاء، سواء بالقلم الرصاص أو بالألوان أو الفحم أو بقلم الحواجب أو أحمر الشفاه.

وفي كل صباح كان الحراس يمحون تلك الأسماء حتى لا يعرف أحد من هو المدفون الحقيقي في كل مقبرة منها ، تحت ذلك المرمر الأخرس.

كانت "ماريا دوس براثيرس" قد شهدت جنازة "دوروتي" ـ أكثر الجنازات التي شهدتها برشلونة حزناً وصخباً ـ وكانت ترغب في أن تدفن في قبر إلى جانبه. ولكن لم يكن هناك أي قبر فارغ في ذلك الجزء من المدافن، ولهذا فقد رضيت بما هو ممكن.

قالت:

- بشرط ألا تحشروني في واحد من تلك الصناديق الصغيرة التي يُقسّط ثمنها على خمس سنوات، ويرقد فيها المرء كأنه في صندوق بريد.

ثم تذكرت الشرط الأساسي، فأضافت:

- وقبل كل شيء لابد أن أدفن في وضع الرقاد.

كانت قد سرت شائعات، بعد الإعلان عن بيع عدد من القبور بالتقسيط، تقول بأنهم يدفنون الموتى عمودياً، أي واقفين، اقتصاداً في المساحة.

وفسر المندوب - بدقة الخطيب الذي يحفظ عن ظهر قلب خطبة رددها كثيراً - بأن تلك الشائعات باطلة ولا أساس لها، وأن مؤسسات الدفن التقليدية هي التي تطلقها وتشيعها بهدف إساءة سمعة مؤسسة الدفن الحديثة التي تبيع دفعة جديدة من القبور بالتقسيط.

وبينما كان الرجل يتكلم، إذا به يسمع ثلاث خبطات خفيفة على الباب، فتوقف عن الكلام، وشعر بالقلق، إلا أن "ماريا دوس براثيرس" طمأنته قائلة:

- لا تقلق.. إنه "نوى".. كلبي!

فاستأنف الرجل حديثه، حتى بدا على "ماريا دوس براثيرس" أنها أقنعت بالكلام، وقبل أن تفتح الباب للكلب، أرادت أن توجز له فكرة أخيرة، كانت مستقرة في رأسها، منذ فيضان (ماناوس) الأسطوري.

قالت:

- كل ما أريد قوله هو أنني أبحث عن مكان أدفن تحت أرضه، دون أن يتهدده أي فيضان ويفضّل أن يكون هذا المكان تحت ظلال الأشجار في الصيف، وألا يخرجوني منه بعد فترة ويرموني في المزبلة.

فتحت باب البيت، ودخل كلب مبلول بماء المطر، ذو مظهر قبيح، لا يتناسب مع ما يوجد بالبيت من فرش وأثاث.

كان عائداً من نزهته الصباحية في الحي، وعند دخوله أصيب بنوع من هياج الغبطة، فقفز على المائدة، وأخذ ينبح بدون سبب معلوم. وكان على وشك تمزيق خريطة المقبرة بقوائمه القذرة الموحلة، إلا أن نظرة واحدة من صاحبته كانت كافية لردعه، بعدها قالت له دون أن تصرخ:

- نوى... انزل!

فتقلّص الكلب، ونظر إليها خائفاً، في حين انزلقت من عينيه دمعتان صافيتان.

وعادت "ماريا" إلى حديثها مع الرجل، الذي كان في حيرة من الأمر، وقال:

- عجباً.. لقد بكى!

فقالت ماريا:

- لقد هاج لأنه وجد شخصاً غريباً في هذه الساعة من الصباح.. وهذا ما لا يحدث عادة... إنه يدخل عادة إلى البيت بعناية وحرص يفوق ما يفعله الرجال، باستثنائك أنت بالطبع!

فقال الرجل مكرراً ما قاله سابقاً:

- ولكن.. يا للعجب.. لقد بكى!

- ثم انتبه سريعاً إلى الأسلوب الانفعالي الذي يستعمله في كلامه، فاعتذر خجلاً:

- أرجو المعذرة.. ولكن هذا أمر لا يمكن مشاهدته حتى في السنيما!

فقالت ماريا:

- كل الكلاب تستطيع أن تفعل ذلك إذا دُرِّبت.. إلا أن الذي يحدث هو أن أصحابها يقضون حياتهم في تدريبها على عادات تجعلها تعاني، مثل الأكل في الصحون، وقضاء حاجتها في ساعات محددة وفي مكان بعينه. ولكنهم لا يعلمونها الأشياء الطبيعية التي تعجبها مثل الضحك أو البكاء.. أين وصلنا في حديثنا؟

- لم يبق إلا القليل!

وجدت "ماريا" نفسها مضطرة إلى قبول تحمّل حرارة الصيف بدون ظلال أشجار، لأن الأشجار الوحيدة التي كانت موجودة بالمدافن كلها، كانت ظلالها محجوزة لرجال النظام الحاكم، في حين أن شروط العقد الأخرى كانت غير ضرورية في نظرها، لأن كل الذي كان يهمها هو الحصول على تخفيض في ثمن المقبرة، في حالة الدفع النقدي الفوري.

عندما انتهيا من كل شيء، أخذ المندوب يلملم أوراقه ويعيدها إلى حقيبته، ثم تأمل المكان حوله بنظرة فاحصة، فأدهشه العبق السحري الذي يلفه، ثم عاود النظر إلى "ماريا دوس براثيرس" وكأنه يراها لأول مرة... قال:

- هل تسمحين لي بأن أسألك سؤالاً خاصاً؟

فقالت وهي تقوده نحو الباب:

- بالطبع.. ولكن بشرط ألا يكون متعلقاً بالعمر!

- إنني ولوع بالتكهن بمهن الناس وأعمالهم من خلال الأشياء الموجودة في بيوتهم، والواقع أنني هنا في حيرة، ولم أصب هدفي... فما هي مهنتك يا سيدتي؟

فأجابته وهي غارقة في الضحك:

- إنني عاهرة يا بني.. ألم يعد هذا بادياً عليَّ؟

فاحمر وجه الرجل وقال:

- إنني آسف!

فقالت:

- أنا التي كان يجب أن تكون آسفة!

وأخذته من ذراعه، لتمنع اصطدامه بالباب، قائلة:

- احذر من أن يتحطم رأسك قبل أن تدفنني جيداً.

بعد إغلاقها الباب مباشرة حملت الكلب، وأخذت تدلله، ثم راحت تغني بصوتها الإفريقي الجميل، منضمة إلى غناء كورس الأطفال الذين شرعوا في الغناء في تلك اللحظة في روضة الأطفال القريبة من المنزل.

قبل هذا الوقت بثلاثة شهور، كانت قد رأت في منامها بأنها ستموت قريباً، ومنذ ذلك الحين وهي أكثر التصاقاً

بذلك الحيوان في وحدتها. واهتمت بشكل فائق بوصيتها لتقسيم حاجاتها وأشيائها بعد موتها، وكذا بمصير جثتها، لكي لا تسبب إزعاجاً لأي أحد بعد موتها!

كانت قد تركت مهنتها بإرادتها بعد أن جمعت ثروة لا بأس بها، ادخرتها من دخلها يوماً بعد آخر، دون أن تقتر على نفسها، أو تحرم نفسها من شيء، ثم اختارت لنفسها كمأوى أخير حي "جراثيا" القديم والنبيل، والذي أخذ اتساع العمران بالمدينة يبتلعه.

اشترت الشقة التي تفصل بين (البدروم) والدور الأول في إحدى العمارات، وكانت الشقة في حالة خربة، تنبعث منها رائحة سمك (الرنجة) كانت جدرانها متآكلة بسبب رطوبة البحر، وبها آثار طلقات نارية لبعض المعارك التي لم تتوّج بأي نصر.

لم يكن بالعمارة بواب، وكانت سلالمها الرطبة المعتمة تنقصها بعض الدرجات، على الرغم من أن جميع شققها كانت مسكونة.

قامت بتجديد الحمام والمطبخ، وغطت حوائط الشقة بورق حائط ملون بألوان بهيجة، وركبت بالنوافذ زجاجاً به

رسومات، ووضعت عليها ستائر مخملية. وأخيراً جلبت إلى الشقة الأثاث الجميل والأدوات المنزلية الأخرى وقطع الديكور والصناديق المغلفة بالحرير والمطرزات التي كان الفاشيون قد سرقوها من منازل الجمهوريين المهجورة التي هربوا منها بعد هزيمتهم، وقامت هي بشرائها شيئاً فشيئاً خلال سنوات طويلة، بأسعار زهيدة وباتفاقيات سرية.

وكانت صلتها الوحيدة التي تربطها بالماضي هي صداقتها للكونت "كردونا" الذي كان مستمراً في التردد عليها وزيارتها. فكان يذهب إليها في يوم الجمعة الأخير من كل شهر.. يتناول العشاء، ثم يمارس معها بعده حباً فاتراً ولكن حتى تلك الصداقة التي تعود بجذورها إلى فترة الشباب، كانت قد بقيت سرية هي الأخرى.. فكان الكونت يترك سيارته التي تحمل شعار عائلته بعيدة بعداً يزيد عما تقتضيه الحكمة، ثم يذهب ماشياً على قدميه تحت الظلال، حفاظاً على سمعته وعلى سمعتها!

لم تكن "ماريا دوس براثيرس"تعرف أحداً من السكان الذين يسكنون في شقق العمارة، باستثناء الشقة المقابلة لشقتها، حيث يسكن زوجان منذ زمن ليس

بالبعيد، مع ابنتهما التي لها من العمر تسع سنوات. والحقيقة التي تبدو غريبة بعض الشيء، هي أنها لم تلتق أبداً بأحد غير هذه الأسرة عند صعودها أونزولها على السلم!

ومع ذلك، فإن تقسيمها لميراثها أظهر بأنها كانت متغلغلة أكثر مما كانت تتصور هي نفسها، في ذلك المجتمع الكتلوني الجاف الذي ترتكز مفاهيمه القومية على الشرف والحياء!.. فحتى خردوات بيتها الأكثر تفاهة، كانت قد أوصت بها إلى الناس الذين كانوا أقرب إلى قلبها، وكانوا أيضاً أقرب إلى بيتها. وفي النهاية لم تكن مقتنعة تماماً بعدالة التوزيع، ولكنها كانت تعزي نفسها بأنها لم تنسَ أحداً يستحق شيئاً من ميراثها. لأنها هيأت ذلك وأعدته بكل أمانة ودقة، أذهلت موثق العقود - الذي كان يعتقد بأنه رأى الكثير من تلك الحالات، فلم يصدق عينيه عندما رآها تُملي عليه - من الذاكرة - قائمة ممتلكاتها بالتفصيل، والاسم الدقيق لكل منها باللغة الكتلونية القديمة، ثم القائمة الكاملة لأسماء الورثة

وأعمالهم أو مناصبهم، وعناوينهم، والمكانة التي يحتلونها في قلبها!

بعد زيارة مندوب مؤسسة الدفن لماريا دوس براثيرس، صارت تتردد على المقبرة، التي ستصبح مثواها الأخير، كل يوم أحد، وزرعت حولها ـ كما يفعل جيرانها في المكان، زهوراً دائمة الخضرة في أحواض زرع صغيرة، وكانت تسقي العشب النابت حديثاً، وتقطعه وتشذبه بمقص خاص بالزراعة حتى يصبح شبيهاً بسجاد قصر البلدية.

وألفت المكان إلى درجة استغربت معها من رؤيته كئيباً موحشاً في البداية. وانقبض قلبها عندما شاهدت القبور الثلاثة المتلاصقة والخالية من الأسماء، ولكنها لم تتوقف أمامها أو تطيل النظر إليها لأن حارساً كان يقف هناك يراقب المكان وزواره. غير أنها ثالث أحد زارت فيه المقبرة، غافلت الحارس، وحققت واحداً من أكبر أحلامها: كتبت بقلم أحمر شفاه على الشاهد الحجري للقبر الأول المغسول بماء المطر: دوروتي.

ومنذ تلك الساعة، كانت تعود إلى فعل ذلك كلما سنحت لها الفرصة. فكتبت على قبر واحد أحياناً، وعلى

اثنين، وعلى الثلاثة أحياناً أخرى. كانت تفعل ذلك برباطة جأش، وقلب هائج بالشوق والحنين!

وذات أحد في شهر سبتمبر، حضرت أول مراسم دفن في تلك المدافن. وبعده بثلاثة أسابيع، وفي أمسية عاصفة شديدة البرودة، دفنوا فتاة حديثة الزواج في أحد القبور الملاصقة لقبرها، وفي نهاية العام كانت سبعة من القبور المجاورة، قد شُغلت.

ومر الشتاء القصير دون أن يختل أو يضطرب نظام حياة "ماريا دوس براثيرس"، ودون أن تشعر بأي تردٍ في حالتها الصحية. ثم جاء ارتفاع الحرارة التدريجي، وتزايد صخب الحياة الذي يُسمع من النوافذ المفتوحة لاستقبال أنسام الربيع وأشعة الشمس المشرقة، ليزيد من رغبتها في الحياة، ويجعلها تتجاوز ألغاز أحلامها، ولذلك رآها الكونت "كردونا" بعد عودته من الجبل الذي يقضي به شهور الصيف الحارة، أكثر جاذبية حتى من فترة شبابها المتأخرة والمدهشة، عندما كانت في الخمسين!

بعد محاولات فاشلة عديدة، استطاعت "ماريا دوس براثيرس" أن تجعل (نوى) يميّز قبرها من بين تلك القبور

الكثيرة المتشابهة في ذلك التل الفسيح، وعلمته بعد ذلك البكاء على القبر الفارغ ، لكي يتعود على فعل ذلك بعد موتها.

وذهبت به مرات كثيرة مشياً على قدميها من البيت حتى المقبرة!

وكانت تلفت انتباهه إلى نقاط محددة في الطريق، لكي يختزنها في ذاكرته، ولا يتوه.. وهذا الطريق هو نفسه الذي تقطعه الحافلة الذاهبة إلى هناك، والتي تنطلق من (لاس رامبلاس).. ولم تترك "ماريا" الكلب إلا بعد أن تأكدت من قدرته على الذهاب وحده إلى هناك.. إلى مثواها الأخير.

وفي يوم الأحد الذي قامت فيه بتجربتها الأخيرة مع الكلب، نزعت عنه سترة الربيع، لأن الصيف كان على الأبواب من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي لا يلفت الأنظار وتركته على هواه، وراقبته من بعيد ، فرأته يبتعد وهو يعدو على الرصيف المظلل، عدواً خفيفاً ، بمؤخرته المنقبضة والحزينة تحت ذنبه الذي يهتز بشدة ذات اليمين وذات الشمال.

واستطاعت بجهد شديد أن تتوقف عن البكاء ـ على نفسها وعلى الكلب، وعلى الأعوام المرة الكثيرة الممتلئة بالأوهام المشتركة! إلى أن انحرف الكلب نحو البحر عند زاوية شارع (كامي مايور) وبعد ربع ساعة ركبت حافلة (لاس رامبلاس) من ميدان (دليسبس) بهدف رؤيته ومتابعته، وهي راكبة دون أن يراها!.. وبالفعل رأته بين مجاميع الأطفال الذين يتنزهون يوم الأحد، وهو ينتظر حزيناً إلى أن تتغير إشارة المرور ليعبر شارع (باسيو دي جراثيا).

قالت في حسرة: "يا إلهي!.. ما أشد وحدته!"

اضطرت لانتظاره ما يقرب من ساعتين تحت وهج شمس (مونتجوس) القاسية.

أثناء تلك الساعتين، ألقت بالتحية لكثيرين من أقارب الموتى، الذين كانت قد تعرفت بهم في أيام الآحاد الماضية.

وانزعجت قليلاً عندما رأتهم لا يرتدون ثياب الحداد على موتاهم، ويتركون الزهور التي كانوا يحملونها فوق القبور، دون أن يفكروا بمن يرقد بداخلها.

وبعد أن غادر جميع الموجودين المقابر، سمعت دوياً صاخباً أفزع النوارس، ورأت في البحر باخرة من عابرات المحيط، بيضاء، يرفرف عليها علم "البرازيل" تمنت من كل قلبها أن تجلب لها تلك الباخرة رسالة من شخص ما مات من أجلها في سجن (برنامبوكو).

وفي الساعة الخامسة واثنتي عشرة دقيقة ظهر (نوى) في التل، وهو يلهث من التعب والحرارة الشديدة، ولكنه كان يبدو مزهواً كالطفل المنتصر.

في تلك اللحظة زال قلق "ماريا" من عدم وجود من يبكي على قبرها بعد موتها.

في الخريف التالي بدأت تلاحظ بعض العلامات المشئومة التي لم تستطع فك رموزها، وأدت إلى شعورها بشيء ما ثقيل في قلبها.

وعادت إلى تناول القهوة تحت أشجار الطلح المذهبة في ميدان (ديلوخ) وهي ترتدي معطفها ذي الياقة المصنوعة من ذيل أحد الثعالب، وقبعتها المزينة بالزهور الصناعية التي رغم قدم عهدها، عادت لتصبح (موضة) من جديد.

شـــحذت غريزتهـــا في محاولـــة لفهـــم ســـبب ضـــيقها وكآبتها، وأرهفت سمعها لأحاديث بائعات الطيور في (لاس رامبلاس)، وهمسات بائعي الكتب والجرائد الذين هجـروا الحـديث عـن كـرة القـدم لأول مـرة منـذ سـنوات طويلـة. وراقبـت الصـمت الطويـل لمشـوهي الحـرب، الـذين يقـذفون بقطع الخبز الصغيرة إلى الحمام المتجمع في الميدان أمـامهم. وشـاهدت في كـل مكـان علامـات للمـوت لا تقبـل الخطـأ. وفي أعياد الميلاد سطعت الأضواء الملونة بين أشـجار الطلـح، وتصاعدت من الشـرفات الموسـيقى وأصـوات الفـرح، وغـزت مجموعـةمن السـياح الغـربيي الأطـوار، المقـاهي المشـيدة في الهواء الطلق، ولكن مع ذلـك فقـد كـان هنـاك حتـى داخـل هذه الاحتفـالات ومظـاهـر البهجـة شـعور بتـوتر مقمـوع شـبيه بالذي سبق الفترة الـتي تسـلط فيهـا الفوضـويون علـى الحيـاة العامة، ولم تكـن "ماريا" التي عاشت تلك الأوقات الجياشـة بـالعواطف والمشـاعر الكـبيرة، قـادرة علـى كـبح جمـاح قلقهـا، واسـتيقظت لأول مـرة وهـي غارقـة في نومهـا علـى صـوت طلقـات ناريـة مروعـة. ففـي إحـدى الليـالي قـام رجـال الأمن بقتل أحـد الطـلاب بالرصـاص أمـام نافـذة بيتهـا، لأنـه

كتب بفرشاة عريضة على أحد الجدران: تحيا كتلونيا حرة"!

قالت لنفسها ـ وهي في غاية الدهشة: "يا إلهي!.. كأن كل شيء يموت معي!!

لم تكن قد عرفت مثل هذا الضيق إلا حينما كانت طفلة في (ماناوس) فقبل طلوع الفجر بدقائق، كانت أصوات الليل العديدة تنقطع فجأة وتتحبس المياه ويتلجلج الطقس وتغرق غابات الأمازون في صمت سحيق لا يشبه إلا صمت الموت.

في وسط ذلك التوتر الذي لا يطاق، ذهب الكونت "كردونا" إلى بيتها يوم الجمعة الأخير من شهر إبريل، لتناول العشاء معها.

كانت زيارته لها قد تحولت إلى طقس ثابت، فكان يصل في مواعيده المحددة بين السابعة والتاسعة مساء، حاملاً معه زجاجة شمبانيا ملفوفة بجريدة المساء لكي لا يلاحظها الناس، وعلبة شيكولاتة. وكانت "ماريا" تهيئ له رقائق محشوة بالكريمة، ودجاجة مسلوقة، وهما النوعان

المفضلان من الطعام لدى العائلات الكتلونية في أيام عزها، بالإضافة إلى طبق من الفواكه.

وبينما كانت هي تهيئ الطعام في المطبخ، كان هو يستمع من خلال الجرامفون إلى مقتطفات من الأوبرا الايطالية، ويرتشف على دفعات كأساً واحدة من النبيذ البرتغالي، تكفيه حتى ينتهي من سماع تلك الأوبرا.

وبعد العشاء الذي يستغرق عادة وقتاً طويلاً تدور خلاله أحاديث كثيرة، كانا يمارسان الحب بشكل رتيب وهما جالسان في مكانهما، وكان هذا يترك في نفسيهما مسحة من الأسى.

وبعدما يبدأ القلق في النفاذ إلى نفسه، لقرب انتصاف الليل، وقبل أن ينصرف الكونت "كردونا"، كان يترك تحت إناء الزهور الموجود بغرفة النوم خمساً وعشرين بيزيتا، وهو نفس سعر "ماريا" عندما تعرف عليها في أحد الفنادق التي مر بها في (براليلو) وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يطله صدأ الزمان، لم يكن أي من الاثنين قد سأل صاحبه مطلقاً عن أسس هذه الصداقة.

كانت "ماريا" تدين له ببعض الأفضال البسيطة، إذ كان ينصحها لكي تحسن التصرف في مدخراتها، وكان قد عرّفها كيف تقدر القيمة الحقيقية لمتلكاتها، وكيف تحفظها، وماذا تفعل لكي لا يكتشف أحد أنها مسروقة. ثم إنه هو الذي دلها على الطريق الذي ينبغي لها أن تختاره لشيخوختها، وأشار عليها بالسكن في (جراثيا) بعد أن تم اعتبارها في الماخور الذي قضت فيه معظم حياتها، عجوزاً لا تناسب مقاييس الذوق الحديثة، وأرادوا إرسالها إلى إحدى دور المتقاعدين السرية، التي كانوا يعلّمون فيها الأطفال ممارسة الجنس، لقاء خمس بيزيتات.

كانت قد روت للكونت كيف أن أمها قد باعتها وهي في الرابعة عشرة من عمرها في ميناء (ماناوس)، وكيف أن الضابط المسؤول في إحدى البواخر التركية قد تمتع بها بلا رحمة خلال عبور المحيط الأطلسي، ثم تركها وحيدة بلا نقود وبلا لغة وبلا اسم، في مستنقع أضواء شارع (براليلو).

كانا يعانيان انعدام الأشياء المشتركة بينهما، وكان شعورهما بالوحدة يتفاقم عندما يكونان معاً، ولكن لم

يتجـرأ أي منهمـا علـى الشـكوى مـن مفـاتن تلـك العـادة. واحتاجا إلى اضطراب وطني عام لكي ينتبها هما الاثنان، وفي نفس الوقت، إلى درجة الكره الذي كان يشعر به أحدهما تجاه الآخر، وإلى مستوى الرأفة الذي كان يحكمهما في تعاملهما خلال سنوات طويلة..

كان الكونت "كردونا" يستمع إلى أوبرا (لابوهيمي) غناء "ليشيا البانيسي" و"بنيامينو جيلي" عندما وصل إلى مسامعه خبر بالصدفة من جهاز الراديو الذي كانت "ماريا" تستمع إليه في المطبخ.

فاقترب على أطراف أصابعه من المطبخ وراح يستمع: كان الجنرال "فرانشيسكو فرانكو" ديكتاتور إسبانيا إلى الأبد، قد تحمل مسؤوليته التاريخية، وقرر رسم مصير ثلاثة من الانفصاليين الباسيك، وحكم عليهم بالإعدام.. فتنفس الكونت الصعداء وقال:

- إذن سوف يرمونهم بالرصاص بكل تأكيد.. وذلك لأن القائد "فرانكو" رجل عادل.

فحدّقت فيه "ماريا" بعينيها المشتعلتين غيظاً، الشبيهتين بعيني أفعى الكوبرا، وشاهدت حدقتيه الخاليتين من

العاطفة وراء النظارة الذهبية، وأسنانه الشبيهة بأسنان القوارض، ويديه المهجّنتين، وكأنهما لحيوان تعوّد على الرطوبة والعتمة، وقالت:

- أطلب من الله ألا يقع ذلك.. لأنهم لو رموا واحداً فقط منهم بالرصاص، لوضعت لك السم في الحساء.

- لماذا؟

- لأنني أنا أيضاً عاهرة عادلة!

بعدها لم يعد الكونت "كردونا" إلى زيارتها، وتأكدت "ماريا" أن الفصل الأخير من حياتها قد خُتم لتوه.

وبعدها كانت تشعر بالأسى والضيق، إذا ما تنازل لها أحدهم عن مقعده في الحافلة، أو أمسك بيدها ليساعدها على عبور الشارع، أو صعود السلالم، كانت تسمح بذلك وتقبله.. فقط كحاجة ضرورية كريهة!

وحينذاك طلبت أن يكون شاهد قبرها، مثل شواهد القبور الثلاثة للفوضويين: بلا اسم أو تاريخ. وأخذت تنام في منزلها دون أن تغلق الباب، وذلك حتى يتمكن "نوى" من الخروج بخبر وفاتها، إذا ماتت أثناء نومها.

في أحد أيام الآحاد، وبعد رجوعها من المقابر، التقت على السلم بالطفلة التي تسكن في الشقة المواجهة لشقتها، فاصطحبتها إلى الشارع، وأخذت تتحدث إليها بطيب قلب الجدات عن كل شيء، وكانت تراقبها وهي تلعب مع "نوى" وكأنهما صديقان قديمان. وفي ميدان (ديامنتي) وحسب ما كانت قد خططت، اشترت لها (آيس كريم)، ثم سألتها:

- هل تحبين الكلاب؟

فأجابت الطفلة:

- نعم.. أحبها جداً!

آنذاك عرضت "ماريا" عليها الاقتراح الذي كانت قد هيأته منذ زمن طويل.. قالت:

- لو حدث لي أي شيء في يوم ما، تولي أنتِ مسؤولية "نوى"، ولكن بشرط واحد، هو أن تتركيه حراً أيام الآحاد، دون أن تقلقي عليه أبداً.. فهو يعرف ما ينبغي له أن يفعله.

- فرحت الطفلة، وعادت "ماريا" إلى بيتها، فرحة هي الأخرى، كانت تشعر بأنها قد أنجرت حلماً نضج في عقلها، واستتر في تفكيرها خلال سنوات عديدة.

وفي الواقع، فإن تأخر تحقيق ذلك الحلم لم يكن راجعاً إلى تعب الشيخوخة أو تأخر الموت، كما لم يكن تحقيقه راجعاً إلى قرار اتخذته بنفسها، بل إن الحياة هي التي كانت قد اتخذت من أجلها ذلك القرار، ذات مساء جليدي من شهر نوفمبر، حين هبت عاصفة مفاجئة عند خروجها من المقابر.

كانت قد كتبت الأسماء على شواهد القبور الثلاثة، ثم توجهت إلى محطة الحافلات، وابتلت ملابسها بالكامل بسبب الأمطار، فأسرعت إلى الاحتماء بمدخل إحدى العمارات في الحي المجاور للمقابر، والذي بدا مهجوراً، وكأنه ينتمي إلى مدينة أخرى بحاناته الخربة ومصانعه المغبرة. وكانت شاحنات النقل الضخمة التي تجري على الطريق تزيد من دوي العاصفة المرعب. وبينما كانت تحاول تدفئة الكلب المبتل بجسدها، كانت الحافلات المكتظة بالركاب، وسيارات الأجرة، تمر مسرعة إلى جانبها، دون

أن ينتبه أحد إلى إشارات الاستغاثة التي كانت تقوم بها. وفجأة، وعندما بدا لها مستحيلا حصول أية معجزة، مرت سيارة فخمة بلون الفولاذ اللامع، دون أن تحدث أي صوت تقريباً، في الشارع المغمور بالماء، وتوقفت على غير توقع من "ماريا" ورجعت إلى الخلف، حتى المكان الذي كانت تقف فيه. ونزل زجاج النافذة بفعل نفخة ساحر، ثم عرض عليها سائق السيارة أن يأخذها إلى المكان الذي تريده. فقالت له:

- أنا ذاهبة إلى مكان بعيد جداً.. وسأكون ممتنة جداً لو أنك قربتني منه فقط.

- قولي لي إلى أين تذهبين؟

- إلى (جراثيا)

- إنه طريقي.. اركبي.

وفتح لها الباب، وركبت. ومن داخل السيارة التي كان ينبعث منها رائحة الأدوية المحفوظة، تحول المطر إلى حادث عارض غير حقيقي، وتبدل لون المدينة، وشعرت هي بوجودها في عالم غريب وسعيد وبلا معاناة. كان قائد السيارة يشق طريقه في فوضى المرور بسلاسة ساحرة.وكانت هي تشعر بالحرج، ليس فقط لمظهرها

البائس بملابسها المبتلة، وإنما بسبب الكلب الذي يرثى له الراقد في حجرها.

- هذه سفينة.. لم أرَ في حياتي مثيلاً لها، ولا حتى في الأحلام.

قالت ذلك لأنها شعرت بأن من واجبها أن تقول شيئاً ما.

- في الواقع.. إن عيبها الوحيد هو أنها ليست سيارتي! أجابها بلغة كتلونيةمتعثرة، ثم أضاف بالإسبانية:

- قد لا يكفيني عمر بأكمله لشراء مثلها!

فقالت وهي تتنهد:

- أتخيل ذلك!

وتفحصته وهي تنظر إليه من جنب، وكانت أضواء لوحة القيادة تنير وجهه قليلاً فتبينت أنه شاب صغير، في سن المراهقة، ذو شعر مجعد وقصير، ومنظره من الجانب شبيه بتمثال برونزي روماني. فظنت بأنه ليس جميلاً، ولكن فيه سحراً مختلفاً، بحيث أن سترته الجلدية الرخيصة والمستهلكة، كانت لائقة به، وأن أمه لابد أن تكون سعيدة عندما تشعر بعودته إلى البيت، ولمظهر يديه

فقط، واللتين تشبهان يدي فلاح، كان بالإمكان تخمين أن السيارة ليست ملكاً له، لو لم يفصح هو عن ذلك.

لم يعودا إلى الحديث، فيما تبقى من الطريق، غير أن "ماريا" هي الأخرى شعرت بأنه كان يتطلع إليها من حين لآخر بنظرات فاحصة. وشعرت من جديد بالمرارة لكونها مازالت حية بهذا العمر. ظنت نفسها قبيحة وتبعث على الشفقة، وهي تغطي رأسها بمنديل المطبخ الذي وضعته على شعرها كيفما اتفق، عندما بدأ المطر يتساقط، وكذا معطف الخريف الذي يرثى له، والذي لم ترغب في تغييره لأنها كانت مستغرقة في التفكير بالموتى.

عندما وصلا إلى حي (جراثيا) كان المطر قد توقف، وكان الوقت قد أصبح ليلاً، وكانت أنوار الشارع قد أضيئت.

أشارت "ماريا" على السائق أن يتركها عند منعطف قريب، ولكنه أصر على توصيلها حتى باب بيتها، ولم يفعل ذلك فحسب، وإنما توقف بحذاء الرصيف تماماً، حتى تتمكن من النزول دون أن تبتل بالماء المتراكم على إسفلت الشارع.

أطلقت الكلب، وحاولت الخروج من السيارة بعزة نفس في حدود ما يسمح لها به جسدها، وعندما التفتت لتشكر سائق السيارة، اصطدمت بنظرة رجل جعلتها تفقد أنفاسها، واحتملت هذه النظرة لحظة دون أن تفهم من الذي ينتظر شيئاً من الآخر:

هي أم هو، وعندئذٍ سألها بصوت ثابت وجريء:

- هل تسمحين لي بمرافقتك؟

وشعرت "ماريا" بالمهانة، فقالت:

- أشكرك كثيراً على حسن صنيعك معي وتوصيلك لي إلى هنا، ولكني لا أسمح لك بالسخرية مني!

فقال بلغة إسبانية وبجدية واضحة:

- ليس هناك أي سبب لكي أسخر من الآخرين.. وبشكل خاص من إمرأة مثلك.

كانت "ماريا" قد تعرفت على الكثير من الرجال مثله، وأنقذت كثيرين من الانتحار.. كانوا أكثر جرأة منه، ولكنها لم تشعر في حياتها الطويلة كلها بمثل هذا الخوف من اتخاذ القرار.

وسمعته يلح من جديد ، دون أن يبدو على صوته أية علامة للتغيير:

- هل تسمحين؟

فابتعدت عن السيارة، دون أن تغلق بابها ، وأجابته باللغة الإسبانية ، لكي تتأكد من أنه سيفهمها :

- افعل ما يحلو لك!

اندفعت إلى مدخل العمارة، الذي كانت أضواء الشارع الشاحبة تضيئه بالكاد ، وشرعت في صعود السلم وركبتاها ترتعشان، وتمكن منها رعب ظنت أن الإنسان يمكن أن يشعر بمثله عند الموت فقط، وعندما توقفت أمام باب شقتها ، وبحثت عن المفتاح في جيبها وهي ترتجف، سمعت صوت إغلاق باب السيارة على التوالي، وحاول "نوى" الذي كان قد سبقها إلى باب الشقة أن ينبح، فقالت له بهمس محتضر:

- .. اسكت!

وبعدها بلحظات شعرت بالخطوات الأولى على السلم، وخافت على قلبها من الانفجار. وخلال جزء من الثانية

عادت إلى التفكير في الحلم التحذيري الذي لازمها طيلة ثلاث سنوات، وأدركت خطأ تفسيرها، فقالت بدهشة:

- يا إلهي.. إذن لم يكن الموت!

عثرت أخيراً على ثقب المفتاح بالباب، في حين كانت تسمع الخطوات المعدودة في الظلام، وتشعر بأنفاس شخص يقترب منها وهو خائف مثلها.

عندها أدركت أن انتظارها خلال سنوات طويلة قد أتى بثماره، وأن معاناتها الطويلة في الظلمات لم تكن هباء.. حتى وإن كانت في سبيل أن تعيش تلك اللحظة فقط.

القديسة

بعد اثنين وعشرين عاماً رأيت مارجريتو دوارتي من جديد ظهر فجأة في أحد الأزقة السرية لـ "تراستيبري" ، لم أتعرف عليه بسهولة منذ النظرة الأولى لرداءة لغته الإسبانية ، ولمظهره الذي بدا وكأنه روماني قديم.

كان شعره أبيضَ وخفيفاً ، ولم يبقَ فيه أثر من سلوكه الحزين وملابسه الجنائزية ، التي كانت تبدو وكأنها ملابس محام من جبال الإنديز، حين جاء بها إلى روما أول مرة.

غير أن مجرى الحديث أخذ ينقذه شيئاً فشيئاً من غدر وخداع السنوات، وعدت أراه كما كان في السابق: صامتاً ومفاجئاً ومثابراً كمثابرة الحجّار.

قبل تناول فنجان القهوة الثاني، في أحد البارات التي كنا نرتادها في الماضي، تجرأت على سؤاله سؤالاً كان يلح عليَّ:

- ما الذي جرى للقديسة؟
- إنها هناك تنتظر!

فقط أنا ومغني الأوبرا رفاييل ريبيرو سلفا، كان بإمكاننا أن نفهم مدى العبء الإنساني الرهيب الذي يكمن في إجابته.

كنا نعرف مأساته إلى الحد الذي جعلني أفكر خلال سنوات بأن مارجريتو دوارتي شخصية تبحث عن مؤلف، شخصية من تلك الشخصيات التي نبقى نحن الروائيين في انتظارها طيلة حياتنا، وإن كنت لم أسمح له بالعثور عليَّ كمؤلف، فذلك يعود إلى أن نهاية قصته كانت تبدو لي مما يصعب تصوره.

كان قد وصل إلى روما في ذلك الربيع المشرق، عندما كان "بيو الثاني عشر" يعاين من أزمة توهان وفقدان للذاكرة عجز عن شفائها كل من الأطباء والسحرة، رغم استعمالهم لجميع الفنون الخيرة والشريرة التي كانوا يجيدونها.

كان قد خرج لأول مرة من قريته (توليما) ذات الانحدارات الجبلية الشديدة بالإنديز الكولومبية، وكان هذا بادياً عليه حتى في طريقة نومه.

حضر في صباح أحد الأيام إلى مقر قنصليتنا ، ومعه حقيبة مصنوعة من خشب الصنوبر البراق، كانت تبدو كأنها علبة كمان عفا عليها الزمن، وبعد أن شرح للقنصل السبب الغريب لقدومه إلى روما ، اتصل القنصل هاتفياً بمغني الأوبرا "رفاييل ريبيرو سلفا" ابن بلده، لكي يحجز له غرفة في البنسيون الذي كنا نسكن فيه نحن الاثنان.وهكذا تعرفت عليه.

لم يكن "مارجريتو وارتي" قد تجاوز في تعليمه حدود المرحلة الابتدائية ، غير أن عشقه للفنون الجميلة، كان سبباً في تكوينه تكويناً معرفياً شاملاً ، فكان يقرأ بنهم كل ما يقع تحت يده من كتب ومطبوعات. وفي الثامنة عشرة من عمره، عندما كان يعمل كاتباً في البلدية ، تزوج بفتاة جميلة لم تعش معه طويلاً ، إذ توفيت وهي تلد ابنتها الأولى.. كانت الطفلة الوليدة أجمل من أمها ، لكنها توفيت هي الأخرى بسبب حمى شديدة أصابتها وهي في السابعة من عمرها.

غير أن القصة الحقيقية لـ "مارجريتو دوارتي" كانت قد بدأت قبل مجيئه إلى روما بستة أشهر، عندما اضطر أهالي قريته إلى نقل مقبرة القرية إلى مكان آخر بسبب بناء سد.

ومثلما فعل غيره، أخرج مارجريتو عظام موتاه لينقلها إلى المقبرة الجديدة، كانت الزوجة قد تحولت إلى تراب، بينما كانت الطفلة على العكس: لم تتغير جثتها أبداً على الرغم من مرور أحد عشر عاماً على دفنها. والأدهى من ذلك رائحة الورود النضرة التي دفنت معها كانت تفوح منها بمجرد أن فتح غطاء التابوت، والشيء المدهش حقاً كان انعدام وزن الجثة!

وتلك كانت في نظر "مارجريتو" ونظر الكثيرين معجزة امتلأت القرية حينذاك بمئات الفضوليين الذين جذبهم خبر المعجزة. لم يكن هناك أي شك في أن عدم تحلل الجثة إنما هو علامة، لا تقبل الجدال، على القدسية. وحتى أسقف الأبرشية كان متفقاً على أن معجزة كهذه، لابد أن يأخذ البابا في روما علماً بها، وأن تخضع لحكم (الفاتيكان). ولهذا نشط الأسقف وبعض أهالي القرية في جمع التبرعات، لتوفير المال اللازم لسفر مارجريتو إلى

روما ، ليصارع من أجل قضية ليست قضيته وحده، ولا قضية القرية الصغيرة، وإنما قضية الوطن كله.

وبيما كان مارجريتو دوارتي يقص علينا حكايته في البنسيون الذي نقيم فيه والواقع في حي (باريولي) الهادئ، إذ به يفتح الحقيبة الخشبيةالمحكمة الغلق ويرفع الغطاء، ليطلعنا على المعجزة!

لم تكن مثل المومياوات الذابلات التي نراها في كثير من متاحف العالم. بل كانت طفلة تلبس فستان عروس، وتبدو وكأنها غارقة في النوم، بعد إقامة طويلة تحت الأرض.كانت بشرتها ملساء ودافئة،وكانت عيناها مفتوحتين وصافيتين، وتوحيان بانطباع يصعب تحمله أو نسيانه، كانت كأنها تنظر الينا من خلال الموت. فقط القماش (الساتان) المصنوع منه الفستان، وأزهار البرتقال الصناعية التي تزين التاج الذي يكلل جبهتها هي التي لم تفلح في مقاومة الزمن.

ولذا لم تكن تتمتع بمثل نضارة بشرة الطفلة. غير أن الورود التي كانت قد وضعت في يديها، كانت ما تزال

نضرة، وعندما أخرجنا الجثة من الحقيبة الخشبية، بدا لنا أن وزن الحقيبة لم ينقص!

في اليوم التالي لوصوله إلى روما، بدأ مارجريتو دوارتي مساعيه للوصول إلى البابا، وتلقى في البداية مساعدة دبلوماسية، كانت تضامنية أكثر منها ذات فعالية. وفيما بعد أخذ يجرب كل الحيل التي كانت تطرأ على باله، لتجاوز العقبات الكثيرة التي كان "الفاتيكان" يضعها في طريقه، وكان شديد الكتمان بشأن تلك الحيل والمساعي التي يبذلها، ولكن الآخرين كانوا يعلمون أنها كانت كثيرة وعديمة الفائدة!

كان يتصل بكافة الجمعيات الدينية والمؤسسات الخيرية التي يجدها في طريقه، أو يشير عليه بها أحد كانوا يستمعون إليه باهتمام، ولكن بدون دهشة أو استغراب، وكانوا يبذلون له الوعود بعمل إجراءات سريعة، لم تتحقق مطلقاً، والواقع أن الوقت لم يكن مناسباً، لأن جميع ما كان يتعلق بالشؤون البابوية، كان يتم إرجاؤه، حتى يتجاوز البابا أزمة فقدان الذاكرة التي لم تستعصِ على الطب فحسب، وإنما على كافة أنواع

العلاجات والوصفات السحرية التي كانت تأتي من أرجاء العالم المختلفة.

وأخيراً في شهر يوليو عوفي البابا، وذهب في إجازته الصيفية إلى (كاستيلو جاندولفو) فأخذ مارجريتو القديسة إلى الجلسة الأسبوعية الأولى أملاً في عرضها عليه.

ظهر البابا في الفناء الداخلي للقلعة، في شرفة منخفضة إلى الحد الذي تمكن فيه مارجريتو من رؤية أظافره المشذبة جيداً، وشم نفسه الذي كان يفوح بعطر اللافندر.

لم يقترب البابا من السيّاح الكثيرين الذين قدموا من أنحاء العالم لرؤيته، كما كان يتوقع أو يود مارجريتو، واكتفى بإلقاء خطابه بست لغات، وأنهاه بالابتهال ومباركة الحاضرين المحتشدين أمامه في الفناء.

بعد إرجاء الأمر مرات عديدة، قرر مارجريتو مواجهة الأمر بنفسه، فقدم مذكرة إلى سكرتارية الفاتيكان، كتبها بخط يده، من ستين ورقة تقريباً. ولكنه لم يحصل من ورائها على أية فائدة. ولقد توقع ذلك، لأن الموظف الذي استلمها منه بصورة رسمية جافة، لم يكلف نفسه حتى إلقاء نظرة على الطفلة الميتة، كما أن الموظفين الذين

كانوا يمرون بالقرب منها ، كانوا ينظرون إليها دون أدنى اهتمام. وقال له أحدهم بأنهم استلموا في السنة الماضية فقط أكثر من ثمانمائة مذكرة يطلب فيها أصحابها تقديس جثث لم تتحلل، في أرجاء مختلفة من العالم وطلب مارجريتو أخيراً فحص إنعدام وزن الجثة، فتأكد الموظف من ذلك، لكنه رفض الإقرار به قائلاً:

- هذا ليس إلا إيحاءً وتخيلاً!

في ساعات فراغه القليلة، وفي أمسيات الآحاد المجدبة شديدة الحرارة، كان مارجريتو يمكث في غرفته، ويستغرق في قراءة أي كتاب يقع تحت يده، ويتصور أنه سيفيده في قضيته.

وفي آخر كل شهر، وبمبادرة شخصية منه، كان يدون في كراس مدرسي صغير، تفاصيل مصروفاته بخطه الأنيق الذي يشبه خط كتبة المحاكم، من أجل أن يطلع عليها المتبرعون بالمال من أبناء قريته في الإنديز، وقبل أن ينقضي عام على وجوده في روما، كان قد تعرف على كل طرق المدينة وكافة أزقتها ومتاهاتها، كما لو أنه قد ولد بها. وكان يتحدث الإيطالية بشكل بسيط ومتقطع مثلما

يتحـدث سـكان الإنـديز اللغـة الإسـبانية، كمـا صـار بالإمكـان مقارنتـه بأفضـل العـارفين لإجـراءات وقواعـد التقديس!

لكنه استنفد وقتاً طويلاً قبل أن يبدل زيه الجنائزي والصـديري وقبعتـه الشـبيهة بقبعـة القضـاة، والـتي كانـت سـائدة في رومـا آنـذاك خاصـة لـدى الجماعـات السـرية ذات الأهداف الغامضة.

واعتـاد علـى الخـروج في الصـباح البـاكر جـداً متأبطـاً حقيبـة القديسـة، وكـان يعـود أحيانـاً في آخـر الليـل منهـوك القـوى وحزينـاً، ولكنـه كـان يحمـل في نفسـه دائمـاً شـحنة مـن الأمـل، تشـحذ همتـه للمتابعـة في اليـوم التـالي، وكـان دائماً ما يقول عندما ينتابه بعض اليأس: "القديسون يعيشون زمنهم الخاص وأزمتهم الخاصة!"

كنت أقيم في روما لأول مرة، بغرض دراسة ا لسينما، حين تعرفت على مـارجريتو، وعشـت عذابـه، بكـل مـا فيـه من شدة وأسى.

كان (البنسيون) الذي نعيش فيه عبارة عن شقة حديثة تقـع علـى بعـد خطـوات مـن شـارع (بـورجيزي)، وكانـت

صاحبته تحتفظ لنفسها بغرفتين فيه، تعيش فيهما، وتؤجر أربعة غرف أخرى للطلبة الأجانب، كنا نناديها "بيلا ماريا".. كانت جميلة، ولكنها حادة المزاج.. في خريف عمرها. كانت وفيه لمبدئها المقدس، وهو أن كل واحد منا ملك متوّج في غرفته.وكانت أختها الكبرى "إنطوانيتا" هي التي تضطلع بأعباء الحياة اليومية في البنسيون.. كانت ملاكاً بلا أجنحة، تعمل ساعات طويلة بالنهار، فتجوب أرجاء البنسيون بدلوها ومساحتها.. تنظف هنا وتمسح أو تلمّع هناك. وهي التي عوّدتنا على أكل العصافير التي يصطادها زوجها بارتولينو الذي اعتاد ذلك منذ زمن الحرب، وهو الذي دعا مارجريتو كي يقيم ببيته الخاص عندما أضحت موارده لا تكفي لدفع الإيجار لماريا.

لم يكن هناك مكان أقل ملاءمة لطباع مارجريتو وأسلوب حياته من البنسيون الذي نعيش فيه والذي لا يحكمه أي قانون ففي كل ساعة كنا نفاجأ فيه بشيء جديد، حتى في الفجر، حين كان يوقظنا الزئير المرعب لأسد حديقة الحيوان بشارع (بورجيزي) القريب من (البنسيون)، وكان مغني الأوبرا ريبيرو سلفا قد حظي

أخـيراً برضـا أهـل رومـا وتغاضـيهم عـن تدريباتـه الغنائيـة المبكـرة، فكـان يسـتيقظ في السادسـة صـباحاً، ويأخـذ حمامـه الطـبي بالمـاء البـارد، ثـم يشـذب لحيتـه وحاجبيـه، ويرتدي روبه ذي المربعات الاسـكتلندية، وتلفيعتـه الحريـر، ويتعطر بعطره الخاص، ثم يُسلم جسده وروحه للتدرب علـى الغنـاء. كـان يفـتح نوافـذ غرفتـه علـى مصـراعيها، ونجـوم السـماء مازالـت تـتلألأ في السـماء، ويشـرع في إحمـاء صـوته بتنغيمـات تصـاعدية بجمـل مـن أعـذب أغـاني الحـب، إلى أن ينطلـق في الغنـاء بأقصـى مـا في أحبالـه الصـوتية مـن قـوة. وكـان الناس يتوقعون يومياً، حين يبلغ أعلى طبقات نغمة الـ (دو) أن يرد عليه أسد حديقـة حيـوان شـارع بـوجيزي، بـزئير يهز الأرض!.. حينئذٍ كانت إنطوانيتا تصيح مذعورة:

- واللّه لقد بعـث القـديس مـاركوس فيـك يـابني.. فهو الوحيد الذي كان يخاطب الوحوش!

في صباح أحد الأيام، لم يكـن الأسد هو مـن ردّ عليـه، فعندما بدأ إحدى ثنائيـات الحـب لعطيـل: "فيمـا مضـى، وفي ليلـة ظلمـاء.. كـان النـواح كلـه واضـحاً مميـزاً.. فجـأة ومـن عمق الفنـاء جاءنـا الـرد في صـوت أوبرالـي جميـل. لم يتوقـف

روبيرو سلفا، وواصل الصوتان غناء الثنائية كاملة، لإمتاع الجيران الذين فتحوا النوافذ ليباركوا منازلهم بذلك السيل الجارف من الحب، وكاد ريبيرو يسقط مغشياً عليه، عندما علم أن (ديدمونته) لم تكن سوى ماريا كانجليا أو بيلا ماريا، كما كنا ندعوها.

وأعتقد أن تلك الحادثة كانت السبب وراء اندماج مارجريتو في حياة (البنسيون). فمنذ ذلك الحين، أصبح يجلس معنا على مائدة الطعام في الصالة، وليس في المطبخ كما كان يفعل في البداية، حيث إنطوانيتا تدخل على قلبه السرور بشكل يومي تقريباً بالمرق الرائع الذي يحتوي على العصافير.

بعد الأكل كانت بيلا ماريا تقرأ لنا الصحف حتى تعوِّدنا على النطق السليم للإيطالية، وكانت كثيراً ما تفسر لنا الأخبار وتكملها بطريقتها الخاصة وبملاحة تدخل البهجة على حياتنا.

في يوم من الأيام قصت علينا، بمناسبة ذكر القديسة، أن في مدينة "باليرمو" متحفاً يضم أجساداً لم تتحلل لرجال ونساء وأطفال كثيرين، وبه أيضاً العديد من الأساقفة

الذين نقلت رفاتهم من مقبرة واحدة تنتمي إلى رهبانية آل كابوتشينو. وأقلق الخبر بالطبع مارجريتو الذي أصر على أن يذهب إلى هناك ليرى بعينيه، إلا أن نظرة واحدة سريعة ألقاها على المومياوات التي تكتظ بها أروقة المتحف، كانت كافية ليصدر حكماً فيه عزاء له.. قال:

- إنها حالات مختلفة.. يلاحظ الذي يتأملها بدقة أنهم موتى!

بعد الغداء، كانت روما تستسلم لخدر شهر أغسطس، حين تكون الشمس ثابتة في وسط السماء، وحين لا يسمع إلا صوت خرير الماء بالنافورات، وبعد القيلولة، وفي حدود السابعة مساءً، كانت النوافذ تفتح لاستقبال النسائم العليلة، ويخرج الناس فرحين إلى الشوارع، وليس لهم من هدف سوى الحياة وسط صخب الدراجات البخارية، وصياح بائعي البطيخ المثلج المعروض على طاولات فوق الأرصفة، وأغنيات الحب بين زهور الشرفات!

ولم نكن أنا ومغني الأوبرا ريبيرو سلفا ننام في القيلولة، فكنا نذهب بدراجته البخارية لنشتري (الآيس

كريم)، ثم نذهب إلى حيث بنات الهوى الصغيرات اللاتي كن يحلقن كالفراشات تحت أشجار شارع بورجيزي العتيقة بحثاً عن السياح المؤرقين بسبب الحر الشديد.

كن جميلات وفقيرات وودودات، وكغالبية النساء الإيطاليات في ذلك الوقت كن يلبسن الثياب القطيفة الزرقاء أو الحمراء، أو الكتان الأخضر، وكن يحتمين من الشمس بمظلات نخرها السوس وأمطار الحرب الأخيرة.

كان التواجد معهن متعة إنسانية كبيرة، لأنهن كن يخالفن قانون المهنة، ولا يعبأن بفقدان زبون جيد من أجل أن يذهبن معنا لتناول القهوة، وتبادل الحديث الطريف في أحد المقاهي القريبة، أو التنزه معنا في عربات الخيل المؤجرة في الحديقة العامة وأكثر من مرة قمنا بالترجمة لهن مع أجنبي ضال يبحث عن متعة لحظية.

ولم يكن اصطحابنا لـ "مارجريتو دوارتي" إلى شارع بورجيزي ذات مرة، بهدف أن يرى بنات الهوى، وإنما كان هدفنا أن يرى الأسد، الذي كان يعيش طليقاً في مساحة من الأرض محاطة بخندق عميق، داخل حديقة الحيوان. وما

كاد الأسد يلمحنا حتى بدأ يزأر زئيراً شديداً، مما جعل حارسه يندهش، واقترب منا زوار الحديقة مذعورين، فوجدها ريبيرو فرصة للإعلان عن هويته بغناء الـ "دو" الصباحية، غير أن الأسد لم يهتم به. كان يزأر نحونا جميعاً دون تفريق، غير أن حارسه سرعان ما انتبه إلى أن الأسد كان يزأر وعيناه على مارجريتو. وفعلاً: كلما تحرك مارجريتو كان الأسد يتحرك معه، وإذا اختبأ، توقف عن الزئير، ولم يجد الحارس تفسيراً لذلك إلا أن يكون مارجريتو قد خالط في هذا اليوم أسوداً أخرى، رائحتها مازالت عالقة به، ولما أكدنا له بأن ذلك لم يحدث، قال:

- على أية حال.. إن زئيره ليس زئير عداء، بل زئير شفقة وحنان.

غير أن ما أثار انفعال مغني الأوبرا روبيرو سلفا لم يكن ذلك المشهد الاستثنائي، وإنما سلوك مارجريتو العصبي واضطراب مشاعره، عندما توقفنا في طريق العودة مع بنات الهوى في شارع بورجيزي. صرح بذلك عند اجتماعنا حول مائدة الطعام، فعلّق البعض منا على الأمر

بخبث، بينما علق آخرون بتعاطف!.. لكننا كنا جميعاً متفقين على أن عملاً طيباً لمساعدة مارجريتو قد يخفف عنه وحدته. وضغطت بيلا ماريا، متأثرة برقة مشاعرنا، على صدرها، كأنها تضم إليها طفلاً، بحنو وبيدين ممتلئتين بالخواتم، ثم قالت:

- كان بودي أن أقوم أنا بذلك على سبيل الشفقة والإحسان، لولا أنني لا أطيق الرجال الذين يرتدون الصديري!

وهكذا ذهب مغني الأوبرا روبيرو سلفا إلى شارع بورجيزي في الساعة الثانية بعد الظهر، وعاد حاملاً وراءه على الدراجة البخارية الفراشة التي بدت له الأكثر ملاءمة لمنح مارجريتو دوارتي ساعة من الصحبة الطيبة، جعلها تتغدى في غرفته، ثم حممها بصابون معطر، ثم نشفها، ثم عطرها بالعطر الخاص به، ثم رشها بالبودرة المستخدمة في (المكياج) من أعلاها إلى أسفلها بعد أن أضاف إليها بعضاً من رائحة الكافور وأخيراً دفع لها أجر الوقت الذي أمضته في غرفته، إضافة إلى أجر ساعة أخرى، ثم وصف لها ما سوف تفعله خطوة خطوة.

قطعت الفتاة الجميلة العارية فناء الدار المظلل على أطراف أصابع قدميها ، ثم دقت دقتين خفيفتين على باب الغرفة الموجودة في آخر الصالة.

فتح مارجريتو الباب، وكان حافياً وبدون قميص، ففوجئ بها تقول له بنبرة فتاة غير مدربة.

مساء الخير أيها الشاب.. لقد بعثني إليك روبيرو سلفا.. وشعر مارجريتو بخدش كبير في كبريائه، لم يتجاوزه إلا بصعوبة.. أفسح لها لتمر من الباب، فدخلت وتمددت فوق السرير، بينما كان هو يرتدي قميصه وحذاءه، لاستقبالها بالاحترام اللائق، وبعد ذلك جلس على كرسي بجانب السرير وبدأ معها الحديث، فنبهته الفتاة وهي في غاية التعجب، بأن عليه أن يسرع وينهي الحديث لأنه ليس أمامها إلا ساعة واحدة تقضيها معه، ثم تنصرف..ولكنه لم يرد أن يفهم!

بعدها قالت بأنها كانت على استعداد للبقاء معه كل الوقت الذي يريده، دون أن تأخذ منه ليرة واحدة، لأنه ليس هناك ـ حسب قولها ـ أي رجل في العالم يمكن أن يتصرف أفضل منه!

لم تكن الفتاة تعلم ما الذي يمكن أن تفعله، فأخذت تتأمل الغرفة وتجوب فيها بنظراتها، إلى أن وقع نظرها على الحقيبة الخشبية فوق المدفأة، فسألته إن كان بداخلها آلة ساكسفون أو شيء من هذا القبيل، فلم يجبها، واتجه إلى النافذة وفتحها على مصراعيها ليدخل النور، ثم تناول الحقيبة ووضعها أمامها على السرير، ثم فتحها.

وحاولت الفتاة المسكينة أن تقول شيئاً، غير أن لسانها عجز عن التعبير، ولم تنطق بحرف! وفرت مذعورة، وأخطأت اتجاهها في الصالة، ووجدت نفسها وجها لوجه مع العمة إنطوانيتا التي كانت ذاهبة لوضع مصباح جديد في غرفتي.

كان ذعر المفاجأة الذي تمكن من الاثنتين عظيماً إلى الحد الذي أدى بالفتاة إلى الاعتصام في غرفة مغني الأوبرا، ولم تغادرها إلا في ساعة متأخرة من الليل. أما العمة إنطوانيتا، فإنها لم تتوصل إلى معرفة ما جرى مطلقاً دخلت إلى غرفتي وهي في غاية الرعب، ولم تستطع تثبيت المصباح الجديد في مكانه لشدة ارتجاف يديها. سألتها عما بها، فأجابت:

إن هذا المكان مسكون.. يا ربي.. حتى في عز النهار!

ثم روت لي باقتناع كبير بأن ضابطاً ألمانيا كان يقيم في غرفة مغني الأوبرا خلال الحرب، وأنه قد خنق عشيقته في تلك الغرفة.

وأضافت بأنها كثيراً ما رأت وهي منهمكة في شغل (البنسيون) القتيلة الجميلة وهي تمشي عارية في الصالة! ثم أردفت:

وقبل لحظات فقط رأيتها تمشي عارية تماماً هنا!.. في هذا المكان.. كانت نسخة طبق الأصل من القتيلة!

استعادت المدينة رتابتها في الخريف، وأغلقت مقاهي الصيف المزدهرة أبوابها مع هبوب أول رياح، وعدنا أنا ومغني الأوبرا إلى ارتياد مطعم بشارع (تراستيبري) حيث اعتدنا تناول العشاء به، مع بعض طلبة معهد (الكونت كارلو كالكاني) وبعض زملائي دارسي السينما، وكان من بين أكثر هؤلاء مواظبة على الحضور إلى المكان "لاكيس".. ذلك اليوناني الذكي، خفيف الظل، الذي لم يكن يعيبه سوى خطبه الباعثة على النعاس، عن الظلم الاجتماعي.

ومن حسن الحظ أن مغني الأوبرا وزملاءه كانوا يفلحون دائماً في هزيمته، وإنهاء خطبه تلك بمقطوعات أوبرالية يغنونها بأعلى طبقات أصواتهم، التي لم تكن تزعج أحداً، رغم أن الوقت غالباً ما يكون بعد منتصف الليل، وعلى العكس كان بعض المارة المتأخرين في العودة إلى ديارهم، ينضمون إليهم ويغنون معهم، في حين يفتح الجيران نوافذهم ليصفقوا لهم.

في إحدى تلك الليالي، وبينما كنا نغني، دخل علينا مارجريتو خلسة، حتى لا يقطع ما نحن فيه.وكان يحمل معه حقيبته الخشبية التي لم يسعفه الوقت كي يتركها في البنسيون، بعد عودته من زيارة قام بها لقس كنيسة (مان خوان دي لتران) الذي كان معروفاً بنفوذه وتأثيره على الطقوس الرهبانية المقدسة.

لمحته بطرف عيني وهو يضع الحقيبة الخشبية تحت منضدة منزوية وجلس إلى جانبنا صامتاً حتى ننتهي من الغناء.

وكما يحدث عادة قرب منتصف الليل، عندما يقل عدد رواد المطعم، ضممنا عدداً من المناضد إلى بعضها

وجلسنا معاً: من كانوا يغنون، ونحن الذين كنا نتحدث في السينما، بالإضافة إلى أصدقاء الطرفين، ومن بينهم بالطبع مارجريتو دوارتي الذي كان معروفاً لدى الجميع بالكولومبي الصامت والحزين، الذي لا يعرف عنه أحد شيئاً! سأله لاكيس - من باب الفضول - إن كان يعزف التشيللو، فانزعجت أنا لهذا السؤال الطائش وغير محمود العواقب من وجهة نظري، وكذلك لم يستطع مغني الأوبرا، الذي انزعج مثلي، تدارك الأمر، لتجنب عواقبه الوخيمة إلا أن مارجريتو، استقبل السؤال بطبيعية وعفوية تامة، قال:

- هذا ليس تشيللو.. إنه القديسة!

وضع الحقيبة الخشبية على المنضدة، وفتح القفل ثم رفع الغطاء. سرت عاطفة من الذهول في أرجاء المطعم، وتجمع الزبائن الآخرون وعمال المطعم والطباخون بمرايلهم الملطخة بالدم كانوا مذهولين وهم يتأملون المعجزة، رسم بعضهم إشارة الصليب على صدره، بينما جثت امرأة كانت بصحبة زوجها بالمطعم على ركبتيها وجمّعت يديها، وأخذت تصلي في صمت وهي ترتعش!

غير أننا، وبعد زوال الانفعال الأول، وجدنا أنفسنا مغمورين في جدال صارخ حول قصور ونقصان القدسية في زماننا، وكان (لاكيس) بالطبع أكثرنا تطرفاً والشيء الوحيد الواضح الذي خرجنا به من جدالنا، هو فكرته عن عمل فيلم تسجيلي عن القديسة، قال:

- إنني على يقين بأن العجوز تيزاري لن يدع موضوعاً كهذا يفلت من يده.

كان يعني تيزاري ثباتيني أستاذ السيناريو، وأحد كبار السينمائيين، الذي كانت تربطنا به علاقة شخصية خارج إطار الدراسة بالمعهد.

كان يحاول أن يعلمنا إلى جانب المهنة، أن نرى الحياة من منظور جديد. كان ماكينة لانتاج السيناريوهات، وكانت الموضوعات تفلت منه، ضد رغبته أحياناً، وفي سرعة شديدة، ولذلك كان دائماً في حاجة إلى من يفكر له بصوت عالٍ بحيث يمسك هو بالفكرة وهي طائرة في الهواء. كان يقول:

- يؤسفني أن أجد نفسي مضطراً إلى تصويرها.

كان يرى أن أية فكرة تفقد كثيراً من سحرها على الشاشة، كان يحتفظ بالأفكار مرتبة حسب موضوعاتها، ومثبتة في الحائط بدبابيس، وكانت لكثرتها تغطي حجرة كاملة بمنزله.

في يوم السبت التالي، ذهبنا للقائه بصحبة مرجريتو، كان شديد الولع بالحياة، حتى أننا وجدناه واقفاً على باب منزله، بشارع أنجيلا ميرثي، مسحوراً بالفكرة التي أبلغناه بها في التليفون لم يحيِّنا ببشاشته المعهودة، بل قاد مارجريتو مباشرة إلى منضدة مهيأة، وفتح الحقيبة بنفسه. عندئذ، حدث ما لم نكن نتخيله: فبدلاً من أن يجن كما كان متوقعاً، اعتراه ضرب من ضروب الشلل العقلي، وهمهم في رعب: يا للعجب! ونظر إلى القديسة في صمت لدقيقتين أو ثلاث، ثم أغلق الحقيبة بنفسه، ودون أن يفوه بكلمة، قاد مارجريتو إلى الباب، كأنه طفل يخطو خطواته الأولى، وربت على ظهره مودعاً، وهو يقول:

- أشكرك يا بني ألف شكر، وليكن الله معك في كفاحك وعندما أغلق الباب، عاد إلينا وأبلغنا حكمه.. قال:

- لا تناسب السينما.. لن يصدقنا أحد.

ولازمنا هذا الدرس غير المتوقع في (ترام) العودة: إذا كان هو قد قال ذلك، فلا مجال للمناقشة.

وبمجرد عودتنا إلى البنسيون استقبلتنا بيلا ماريا، برسالة عاجلة تقول إن ثباتيني ينتظرنا بدون مارجريتو.

وجدناه في لحظة من لحظات تألقه.. وكان لاكيس قد اصطحب معه اثنين من زملائه، لكن ثباتيني لم يلحظ وجودهما صرخ:

- وجدتها!.. سيكون فيلماً مدوياً.. لو أتى مارجريتو بمعجزة إحياء الطفلة!

فسألته:

- في الفيلم أم في الحقيقة؟

كبت ضيقه، وقال:

- لا تكن أحمقَ..

ورأينا في الحال بريق فكرة لا تقاوم في عينيه، في حين أضاف:

- إلا إذا استطاع إعادتها إلى الحياة بالفعل..

ثم قال بجدية:

- عليه أن يجرب!

كان خاطراً مغرياً ولحظياً، وقبل أن يواصل عرض فكرته، أخذ يجوب منزله كمعتوه سعيد، وهو يومئ بيديه، ثم راح يروي لنا قصة الفيلم في جلبة صاخبة.

كنا نستمع إليه مبهورين، ونرى المشاهد كعصافير فسفورية تفر منه أسرابها، وتحلق في جنون في أرجاء المنزل قال:

وفي ليلة ما، وبعد وفاة عشرين بابا لم يستقبلوه يدخل مارجريتو منزله . وقد هدّه التعب والشيخوخة، ويفتح الحقيبة الخشبية، ويداعب وجه الطفلة التي ترقد بداخلها، ويقول لها بكل حنان.. "إن كنت تحبين بابا.. انهضي وسيري".

ثم نظر إلينا، واختتم قوله بلهجة المنتصر:

- فتنهض الطفلة!

كان ينتظر منا رداً، لكننا لم نجد ما نقوله من فرط حيرتنا، فيما عدا لاكيس اليوناني الذي رفع إصبعه وكأنه تلميذ في مدرسة، ليطلب إذناً بالكلام قال . متوجهاً مباشرة إلى ثباتيني:

- مشكلتي أنني لا أصدق هذا!.. وأرجو أن تسامحني يا أستاذ، لكنني لا أصدقه.

واعترت ثباتيني حيرة ودهشة، فقال:

- ولم لا؟

فقال لاكيس ـ في ضيق:

- لا أعرف.. لا يمكن أن يكون واقعياً.

فصاح ثباتيني صيحة مدوية:

- بحق الشيطان!.. إن هذا هو ما لا أطيقه في الستالينيين، فهم لا يعتقدون إلا في الواقع!

في السنوات الخمس عشرة التالية ـ وحسب ما رواه لي مارجريتو، فإنه كان قد ذهب بالقديسة إلى (كاستيلو جندولفو)، عسى أن يجد فرصة لعرضها على البابا. وفي لقاء ضم ما يقرب من مئتي حاج أمريكي لاتيني، تمكن من سرد قصته ـ بين لكزات ودفعات من الخلف ـ للبابا خوان الثالث والعشرين، المعروف بلطفه، لكنه لم يتمكن من أن يعرض عليه الطفلة ـ لأنه كان قد تركها عند المدخل، إلى جانب أمتعة وحقائب بقية الحجاج، حسب

تعليمات أمن الفاتيكان، خوفاً من حدوث حادث إرهابي، يفقد فيه البابا حياته.

سمعه البابا باهتمام بالغ، وفي حدود ما كان يسمح به اللقاء والجمهور، ثم ربت على يده تشجيعاً له، وقال:

- حسناً يا بني.. إن الله سيكافئك على مثابرتك.

غير أنه لم يشعر بقرب تحقق حلمه إلا في العهد القصير جداً للبابا المبتسم ألبينو لوثياني.. فقد وعده أحد أقربائه بالوساطة، بعدما تأثر بحكايته.

ولم يصدقه أحد، إلا أنه وبعد يومين فقط، وبينما كنا نتناول الغداء في (البنسيون) تلقى مكالمة تليفونية مفادها أنه لاينبغي أن يتحرك من روما، لأنه سيدعى للقاء البابا في الفاتيكان قبل يوم الخميس.

ولم نستطع التيقن مما إذا كان الأمر جاداً أم أنه مزحة.

ولكن مارجريتو كان الوحيد الذي يعتقد أن الأمر جاد، وظل في حالة ترقب دائم، ولم يغادر (البنسيون)، وكان إذا أراد الذهاب إلى الحمام، ينبهنا جميعاً ويقول:

- أنا ذاهب إلى الحمام..

فكانت بيلا ماريا بظرفها المعتاد - والتي كانت تقف على عتبة الشيخوخة، ترد عليه قائلة:

- نعرف.. قد يناديك البابا.. أليس كذلك؟!

في الأسبوع التالي، وقبل يومين فقط من الموعد المحدد في المكالمة التليفونية، تهاوى مارجريتو، عندما لمح الخبر الرئيسي للصحيفة التي دفعت إليه من تحت الباب: مات البابا!

وعاش لحظات من الأمل عندما خطر بباله بأن الصحيفة يمكن أن تكون قديمة، وأنها وزعت وجاءته بطريق الخطأ. لأنه ليس من المعقول أن يموت بابا كل شهر!.. ولكن هذا ما كان .. فالمبتسم ألبينو لوثياني الذي اعتلى كرسي البابوية قبل ثلاثة وثلاثين يوماً فقط، أصبح ميتاً وجثة هامدة في فراشه!

عدت إلى روما بعد اثنين وعشرين عاماً، من تعرفي الأول على مارجريتو دوارتي، وربما لم أكن لأتذكره ما لم ألتق به مصادفة، لأني كنت مهموماً بما فيه الكفاية، بما خلّفته يد الزمن من خراب.

كان المطر يتساقط بلا توقف في شكل رذاذ خفيف كالحساء الفاتر، وكانت الأضواء المشرقة القديمة، قد صارت باهتة، والأماكن التي كنت أحسبها ملكاً لي، وكانت تبعث في نفسي الحنين والشوق، تحولت إلى أماكن أخرى غريبة، كان (البنسيون) الذي كنا نسكن فيه على حاله، ولكن لم يكن به أحد يعرف شيئاً عن بيلا ماريا، كما لم يرد عليّ أحد في أرقام التليفونات الستة التي كان مغني الأوبرا ريبيرو سلفا، قد أرسلها لي عبر تلك السنوات، وذات يوم، تناولت الغداء مع جماعة من السينمائيين الجدد، وذكرت في حديثي اسم استاذي ثباتيني، فخيم صمت مفاجئ بين الموجودين، ثم واتت أحدهم الشجاعة، فقال:

- ثباتيني؟.. أنا لم أسمع بهذا الاسم من قبل!

وهكذا كان: لم يكن هناك من سمع به.. وكانت أشجار شارع بورجيزي شعثاء تحت المطر، وكان منتزه العربات التي تجرها الخيول، قد ابتلعته الحشائش وتوزعت به هنا وهناك في غير نظام النباتات الشيطانية، بدلاً من

الزهـور الـتي كـانـت تزينـه. وحـلّ مخنثـون مفتولـو العضـلات يرتدون فساتينَ وتنورات قصيرة، محل الصبايا الحسناوات.

وبدلاً من أسد حديقـة الحيـوان الـذي كـان يـزأر كلمـا غنى ريبيرو سلفا، كـان هنـاك أسـد عجـوز ومزكـوم!.. ولم يكـن هنـاك مـن يغـني ولا مـن يمـوت حبـاً ولوعـة في المطـاعم الـتي يغلـف واجهاتهـا البلاسـتيك بميـدان إسـبانيا.. وكانـت روما المختزنة في ذاكرتنا، قد أصبحت روما أخرى قديمة.

وفجأة، استوقفني صوت، كـان كـأنـه قـادم مـن عـالم آخر، في أحد شوارع تراستيبري:

- مرحباً أيها الشاعر!

كـان هو بعينه.. عجوزاً ومتعبـاً.. وكـان خمسـة بابـاوات قد قضوا نحبهم، وكانت قد ظهـرت أولى علامـات تـداعـي روما الخالدة، بينما كان هو مايزال ينتظر!

قـال لـي وهـو يـودعني، بعـد أربـع سـاعات مـن ذكـريـات الحنين:

- لقد انتظرت طويلاً، وليس من المعقول أن يتأخر الحل أكثر من ذلك، قد يتأخر بضعة أشهر أخرى فقط!

وذهب يجر خطواته في وسط الشارع بحذائه الحربي الثقيل، وقبعته التي فقدت لونها ، وكأنه روماني قديم، دون أن ينتبه أو يحذر من الحفر المليئة بماء المطر، والتي كانت الأضواء تتكسر بها وتنطفئ.

حينذاك لم يتبق لدي أدنى شك - وإن كنت لم أشك من قبل - في أنه هو نفسه كان القديس.. وبدون وعي منه، ومن خلال الجثة التي لم تتحلل لطفلته، كان يناضل منذ اثنين وعشرين عاماً من أجل قضيته المشروعة والخاصة جداً لإعلان قداسته.

وداعاً سيدي الرئيس

كان يجلس على (الدكة) الخشبية تحت الأوراق الصفراء الذابلة، لأشجار المنتزه المقفر، يتأمل البجعات المعفرة، وهو يتكئ بيديه على المقبض الفضي لعكازه، سارحاً بتفكيره في الموت.

عندما جاء إلى جنيف أول مرة، كانت تلك البحيرة المنبسطة أمامه الآن، هادئة وصافية، وكانت هناك نوارس وديعة تقترب من الناس الجالسين حول البحيرة، وتأكل من أيديهم كما كانت هناك فتيات ليل يلبسن فساتين ذات كرانيش مصنوعة من القطن الأبيض الشفاف، ويحملن مظلات حريرية، وكأنهن أشباح السادسة مساء.

أما الآن، فإن المرأة الوحيدة التي تقع في مجال الرؤية، هي بائعة الزهور التي تقف على الرصيف الخالي من المارة.

كان من الصعب عليه أن يقتنع بأن الزمن استطاع أن يسبب مثل هذا التغير، ليس في حياته فقط، ولكن في العالم أيضاً.

كان شخصاً مجهولاً كغيره من الناس في هذه المدينة.. مدينة المشاهير المجهولين.

كان يلبس بدلة زرقاء قاتمة ذات خطوط بيضاء، وصدرية حرير مزركش، ويضع فوق رأسه قبعة صلبة من ذلك النوع الذي اعتاد الحكام المتقاعدون استعماله.

وكان له شارب شامخ طويل الطرفين، وشعر رمادي كثيف ذو تجعيدات رومانتيكية، ويدان رقيقتان كأنهما يدا عازف هارب.. وفي بنصر يده اليسرى خاتم الزواج، على الرغم من أنه أرمل، وكانت له عينان ذاتا نظرات بهيجة متفائلة.

الشيء الوحيد الذي كان يشي بحالته الصحية هو بشرته المتعبة.

كان يشعر في ذلك الصباح بأنه بعيد تماماً عن أي شعور بالعظمة أو الكبرياء.. لقد مرت أعوام السلطة والمجد، ولم يبق الآن إلا أعوام الانزواء وانتظار الموت!

كان قد عاد إلى جنيف بعد حربين عالميتين، ليبحث عن علاج يشفيه من ألمه المضني، الذي فشل أطباء جزيرة (مارتينيكا) الكاريبية في تشخيصه. كان لا يتوقع أن

إقامته في جنيف ستطول أو تتجاوز الخمسة عشرة يوماً ، ولكن ها هو ذا مقيم بها منذ ستة أسابيع، ما بين فحوصات مهلكة ونتائج غير مؤكدة ، دون أن تلوح في الأفق نهاية لكل ذلك.

كانو يبحثون عن الألم في الكبد وفي الكلية وفي البنكرياس وفي البروستاتا ، ولكن عبثاً.

إلى أن جاء الخميس المشؤوم، وحدد له أقل من رآه من الأطباء شهرة، موعداً في الساعة التاسعة صباحاً بقسم الأمراض العصبية.

كانت حجرة الكشف أشبه بصومعة أحد الرهبان، وكان الطبيب هزيلاً ويبدو مكتئباً. وكانت يده اليمنى موضوعة في الجبس بسبب كسر في إبهامه. عندما أطفأ النور ظهرت على الشاشة الصغيرة المضيئة صورة أشعة لعمود فقري. لم يكن يعرف أنها تخصه إلا حينما أشار الطبيب بمؤشر إلى موضع تحت الخصر، عند التحام فقرتين من الفقرات العظمية، وقال:

- هنا يكمن سبب ألمك يا سيدي!

لم يكن هذا سهل التصور بالنسبة له، لأن ألمه الذي كان شديداً وصعب الاحتمال، كان موضعه يتغير باستمرار، فأحياناً يكون في جانبه الأيمن، وأحياناً يكون أسفل البطن، وبين الحين والآخر كان يفاجئه على شكل وخزات لحظية بأعلى فخذه.

استمع إليه الطبيب باندهاش، دون أن يزيل المؤشر عن الشاشة المضيئة، ثم قال:

- لهذا خدعنا كل هذا الوقت!.. لكننا على يقين الآن بأنه يكمن هنا.. هنا بالضبط!

ثم وضع سبابته على خده، وأضاف قائلاً:

- لابد من إجراء عملية جراحية.. لا مفر من ذلك سيدي الرئيس! كان أسلوبه الطبي درامياً إلى الحد الذي بدا فيه حكمه الأخير وقراره رحيماً!

فسأله الرئيس عن درجة الخطر، بعدما وضعته إجابة الطبيب في دائرة من الشك والحيرة.

فقال الطبيب:

- ليس بإمكاننا تحديد درجة الخطر بدقة.

ثم أضاف:

- حتى وقت قريب كانت نسبة الخطر في تلك العمليات كبيرة.. واحتمالات الإصابة بالشلل بعدها كانت كبيرة أيضاً.. غير أنه الآن - وبعد التقدم الطبي، صارت مخاوفنا من ذلك أحد موروثات الماضي!

وختم كلامه بقوله:

- كن مطمئناً.. واذهب لتهيئ نفسك وترتب أمورك.. ثم تخبرنا بأنك جاهز.. ولكن لا تنس أنك كلما أسرعت كان أفضل.

لم يكن صباحاً طيباً لهضم مثل ذلك النبأ السيئ، خاصة وهو في هذا الخلاء!.. كان قد خرج مبكراً من الفندق، دون معطف، لأنه شاهد شمساً مشرقة من خلال النافذة، وكان قد مضى بخطواته المحسوبة، بعدما غادر المستشفى، إلى ملجأ العشاق العابرين في "المنتزه الإنجليزي" ومازال هناك منذ أكثر من ساعة، يجلس سارحاً بتفكيره في الموت، كعادته منذ بدأ الخريف.

اضطربت صفحة مياه البحيرة، وكأنها المحيط الهادر، وأفزعت الريح المهووسة طيور النورس، وأسقطت آخر الأوراق الذابلة العالقة بأوراق الشجر.

نهض الرئيس من مكانه، وبدلاً من أن يشتري زهرة من بائعة الزهور، قطف أقحوانة من أحد أحواض الزهور بالمنتزه، ووضعها في عروة سترته، فاندهشت بائعة الزهور، وقالت بانفعال:

- هذه الزهور ليست لله يا سيدي.. إنها ملك البلدية.

لم يهتم بما قالت، وابتعد بخطوات خفيفة، ماسكاً بالعكاز من وسطه، ومحركاً إياه في خلاعة.

وعند جسر (مونبلان) كانوا ينزعون أعلام الكونفدرالية التي أصابتها الريح بالجنون، وكانت النافورة البديعة المتوّجة بالرغوة قد أوقفت قبل موعدها المحدد. ولم يتعرف الرئيس على مقهاه الذي اعتاد الذهاب إليه بسهولة، لأنهم كانوا قد خلعوا المظلة الخضراء من فوق مدخله، كما كانت (فاترينات) الأزهار الصيفية قد أغلقت منذ حين.

كانت مصابيح الصالة بالمقهى مضاءة في عز النهار، وكان رباعي الوتريات يستعدون لعزف قطعة موسيقية لموزارت، التقط صحيفة من بين كومة الصحف الموضوعة

على طاولة بمدخل المقهى ليطلع عليها رواد المقهى، ووضع القبعة والعكاز على الشماعة، ثم وضع نظارته ذات الإطار الذهبي فوق عينيه ليقرأ، بعد أن اتخذ مكانه على طاولة منزوية بالمقهى، وحينذاك فقط أدرك بأن الخريف قد حلَّ، بدأ القراءة بصفحة الأخبار العالمية، والتي كان يعثر فيها بين الحين والآخر على بعض الأخبار الخاصة بأمريكا اللاتينية، واستمر في القراءة العكسية: من الخلف إلى الأمام، إلى أن وصلت عاملة المقهى، حاملة إليه زجاجة ماء (إيفيان)، التي اعتاد تناولها كل يوم.

كان قد هجر عادة تناول القهوة منذ ثلاثين عاماً بتوصية من الأطباء، لكنه كان يقول لنفسه: "إذا تأكدت يوماً من أنني على وشك الموت، فسأعود إلى تناولها.. وربما تكون ساعة الموت قد اقتربت"!

لذلك قال لعاملة المقهى بفرنسية سليمة:

- هاتِ لي قهوة أيضاً.

ثم أضاف:

- قهوة على الطريقة الإيطالية، تبعث ميتاً!

ولم ينتبه إلى ما في كلامه من تناقض.

تناول القهوة بدون سكر على رشفات بطيئة، وبعدها قلب الفنجان في الطبق، لكي يكون لترسبات البن، بعد كل هذه السنوات وقت لكتابة مصيره، خلّصه مذاق القهوة، الذي كان قد نسيه من زمن طويل، من أفكاره السوداء، وبعد لحظة، وكجزء من نفس السحر، شعر بأن أحداً ما يراقبه، فطوى الصحيفة بحركة مفاجئة، ونظر من فوق النظارة، فرأى رجلاً شاحباً غير حليق الذقن، يرتدي قبعة رياضية، وسترة جلدية مرفوعة الياقة، ما أن رآه ينظر إليه، حتى أشاح بوجهه بعيداً.

كان وجهه مألوفاً، وكان أحدهما قد رأى الآخر أكثر من مرة، في ممر المستشفى التي يجري بها فحوصه، كما كان قد رآه يوماً على ظهر دراجة بخارية بالقرب من (برومينا دي دولاك) حينما كان هو يتأمل الإوزات، ولكنه لم يتوقع في أي وقت أو يشعر بأنه معروف، ومع ذلك، فإنه لم يستبعد أن يكون شبحاً آخر من الأشباح التي تطارده في المنفى.

أكمل قراءة الصحيفة بتمهل ودونما استعجال، وهو يحلق مع أنغام موسيقى برامز، حتى صار الألم الذي يشعر

به أشد من خدر الموسيقى، فنظر في ساعته الذهبية المعلقة بسلسلة تتدلى من جيب الصدرية، ثم تناول قرصين مهدئين خاصين بمنتصف النهار بما تبقى من ماء (إيفيان).

وقبل أن ينزع نظارته، نظر إلى مصيره في فنجان القهوة، وانتابته قشعريرة جليدية: هنالك كانت تكمن حيرته وشكوكه.

وأخيراً نهض من مكانه، ودفع الحساب مع بقشيش قليل، ثم تناول عكازه وقبعته من على الشماعة، وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذي كان يراقبه.

ابتعد عن المقهى وهو يخطو خطواً احتفالياً، محاذياً أحواض الزهور التي أفسدتها الرياح، ظاناً بأنه قد تحرر من ذلك الشبح الذي كان يتبعه بعيونه في المقهى. غير أنه شعر فجأة بأن أحداً يتبع خطواته، فتمهل في مشيه، ثم توقف فجأة عند منحنى ودار حول نفسه، ووجد الرجل الذي كان يتبعه نفسه مضطراً إلى التوقف الفجائي، وإلا سيصطدم به، ونظر إليه فزعاً وهو على بعد قليل منه، ثم همس:

- سيادة الرئيس!

ودون أن يتخلى عن ابتسامته الساخرة وصوته الجهوري، قال الرئيس:

- قل لهؤلاء الذين يدفعون لك، ألا يحلمون كثيراً، فصحتي على خير ما يرام.

فقال الرجل، وهو يشعر بثقل العتاب الذي داهمه:

- لا أحد يعرف ذلك أفضل مني.. فأنا أعمل في المستشفى.

كان لفظه وإيقاعه ، وحتى خجله ينم عن أنه كاريبي قح.

قال الرئيس:

- لا تقل لي إنك طبيب!

- ليتني كنت كذلك يا سيدي.. إنني سائق عربة إسعاف.

- يا للأسف.. إنه عمل شاق ولاشك!

- ليس أشق من عملك يا سيدي الرئيس!

فنظر إليه الرئيس بحدة واتكأ على عكازه بيديه الاثنتين، ثم سأله باهتمام حقيقي:

- من أين أنت؟

- من الكاريبي
- لقد فطنت إلى هذا، ولكن من أي بلد في الكاريبي؟
- من نفس بلدك أيها الرئيس.

ومد يده ليصافحه، وهو يقول:

- اسمى هوميروس ري

فقال الرئيس مندهشاً ـ وهو يصافحه:

- عجباً!.. أي اسم جميل!

فتنفس هوميروس الصعداء وقال:

- بل وأكثر من ذلك: هوميروس ري ديلاكاسا*

هجمت عليهما موجة برد شتائية، وهما دون حماية، في منتصف الطريق، فشعر الرئيس برعشة من البرد تسري في جسده وتمتد حتى عظامه، وأدرك بأنه لن يستطيع السير بدون معطف ليقطع الشارعين اللذين يفصلانه عن دار الفقراء التي اعتاد تناول غدائه بها، فالتفت إلى هوميروس وسأله:

- هل تناولت غداءك؟

---

* هوميروس ملك البيت.

- أنـا لا أتغـدى أبـداً.. أتنـاول وجبـة واحـدة فقـط عندما أعود إلى بيتي في الليل.

- ليكن اليوم استثناءً.. فأنا أدعوك لتناول الغداء.

تأبط ذراعه، وتوجه إلى المطعم المقابل الذي كان اسمه مكتوباً في أعلى مدخله بحروف مذهبة: الثور المتوّج.

كـان المطعـم مـن الـداخل ضـيقاً ودافئـاً، ولم يكـن بـه مكـان شـاغر، اسـتمر هـوميروس ماضـياً في طريقـه بـداخل المطعم حتى نهاية الصـالة، علّـه يجـد مائـدة خاليـة، أو أحـداً ينتبه إليه فيساعده، وكانت تتملكه الدهشة مـن أن أحـداً من الموجودين لم يتعرف على الرئيس.

- هل هو رئيس مستمر في منصبه؟

سأله رئيس العمال بالمطعم.

- لا .. إنه رئيس مخلوع!

فابتسم رئيس العمال ابتسامة رضا، وقال:

- عندي دائماً لهؤلاء مائدة خاصة!

وقادهمـا إلى مكـان منعـزل في عمـق الصـالة، حيـث يكون بإمكانهما التحدث براحة أكثر، فشكره الرئيس قائلاً:

- ليس هناك الكثير ممن يفهمون كرامة المنفى، مثل حضرتك!

كان المطعم مختصاً بشيّ أضلاع الثور على الفحم. نظر الرئيس وضيفه إلى الموائد القريبة، فوقع نظرهما على قطع اللحم الكبيرة المشوية، والمحاطة بالشحم الطري، ثم همس الرئيس:

- إنه لحم رائع.. إلا أنه ممنوع عليَّ.

ونظر إلى هوميروس نظرة ثابتة، وغيّر من نبرة صوته وقال:

- في الواقع.. إن كل شيء ممنوع عليَّ.
- والقهوة أيضاً.. ممنوعة على سيادتك، ومع ذلك تناولتها!
- أفطنت إلى ذلك؟!.. كان هذا استثناءً في يوم استثنائي.

لم تكن القهوة الاستثناء الوحيد في ذلك اليوم، فقد طلب أضلاع ثور مشوية على الفحم وسلطة بقول طازجة بدون بهارات، مع بعض قطرات من زيت الزيتون. وطلب

ضيفه هوميروس نفس ما طلب، بالإضافة إلى نصف دورق من النبيذ الأحمر.

وبينما كانا ينتظران اللحم المشوي، أخرج هوميروس من جيب سترته محفظة نقود خالية من النقود ومليئة بالأوراق، سحب منها صورة باهتة اللون، وناولها للرئيس. فتعرّف الرئيس على نفسه فيها، حيث كان يرتدي قميصاً، وكان أنحف مما هو عليه الآن كما كان شعره وشاربه شديدي السواد.وكان يتوسط مجموعة من الشباب الذين بذلوا كل ما في وسعهم لكي يظهروا في الصورة.

وبنظرة واحدة تعرف على المكان، وتذكر شعارات الحملة الانتخابية المملة وتاريخها النحس، ثم همس:

- يا للعجب!.. أقول دائماً إن الواحد منا يشيب في الصور أكثر من الواقع في الحياة.

ثم أعاد الصورة إلى هوميروس مصحوبة بإيماءة، ثم قال:

- أتذكرها جيداً.. كان ذلك منذ زمن بعيد، في حلبة مصارعة الديوك بـ"سان كريستوبال دي لاس كاساس"!

فقال هوميروس:

- تلك هي بلدتي!

ثم أشار إلى نفسه ضمن المجموعة التي بالصورة، وقال:

- هذا هو أنا!

- كنت شاباً صغيراً.

- كنت مع سيادتك خلال حملة الجنوب الانتخابية، كقائد للفرق الجامعية.

واستبق الرئيس العتاب، قائلاً:

- وأنا بالطبع لم أكن أنتبه إليك!

- بالعكس، لقد كنت لطيفاً معنا، ولكننا كنا كثيرين، ما يجعل من المستحيل على سيادتك تذكرنا.

- ثم ماذا جرى بعد ذلك؟

- ومن يعرف ذلك خير منك يا سيدي؟.. الانقلاب العسكري..

يبدو أنها معجزة أن نكون هنا نحن الاثنان، على أهبة الاستعداد لأكل نصف ثور.. ليسوا كثيرين من كان لهم مثل حظنا!

في تلك اللحظات، وضعت أمامهما أطباق الطعام، وعلق الرئيس الفوطة في عنقه، وانتبه إلى صمت ضيفه الممزوج بالدهشة، فعلق قائلاً:

- لو لم أفعل ذلك، لفقدت ربطة عنق في كل وجبة طعام! وقبل أن يشرع في تناول الطعام، تذوق قطعة من اللحم ليتأكد من نضجها، فاستحسنها بإشارة رضا، ثم قال:

- الذي لا أفهمه هو لماذا لم تقترب مني من قبل، بدلاً من أن تتبعني كعميل من عملاء المخابرات؟!

عندئذ قص عليه هوميروس، بأنه قد تعرف عليه حين رآه يدخل المستشفى من باب الحالات الخاصة. كان ذلك في منتصف الصيف، وكان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض كتلك التي يرتديها مواطنو جزر الأنتيل بأمريكا الوسطى، وكان ينتعل حذاءً ذي لونين: أسود وأبيض، ويضع زهرة أقحوان في عروة سترته، وكان شعره منفوشاً بفعل الريح.

وتوصل هوميروس إلى أنه كان وحيداً في جنيف، لا يعاونه أحد، وأنه يعرف المدينة عن ظهر قلب، حيث كان قد درس بها القانون في شبابه.

وكانت إدارة المستشفى قد اتخذت بناء على طلبه قراراً بالحفاظ على سرية الأمر الخاص بعلاجه.

وفي تلك الليلة بالذات كان هوميروس قد اتفق مع زوجته على الاتصال به. وظل يتبعه خمسة أسابيع متوالية باحثاً عن الفرصة المناسبة.. وربما لم يكن يجرؤ على تحيته، لولا تلك المواجهة التي حدثت!

قال الرئيس:

- يسعدني أنك فعلت ذلك.. رغم أن الوحدة والعزلة لا تزعجاني.

- ليس هذا عدلاً.

فسأله الرئيس:

- لم؟!

ثم أضاف:

- إن الانتصار الأكبر في حياتي هو أني جعلت الآخرين ينسوني.

فقال هوميروس، دون أن يخفي تأثره:

- نحن نتذكرك أكثر مما تظن.. إنها لسعادة لنا أن نراك سليماً وشاباً.

فقال الرئيس بلا انفعال:

- ومع ذلك، فإن كل الدلائل تشير إلى أنني سأموت قريباً جداً.

فقال هوميروس:

- على العكس، فإن احتمال خروجك بخير من العملية الجراحية كبير جداً.

فقفز الرئيس من على مقعده، لشدة مفاجأته بما سمع، وقال دون أن يتنازل عن وقاره وكبريائه:

- عجباً!.. هل ألغى في سويسرا الجميلة قانون الكتمان الطبي والمحافظة على أسرار المهنة؟

- لا.. ولكن لا توجد في أي مستشفى بالعالم أسرار تخفي على سائق إسعاف بها.

- ما أعرفه الآن أعرفه منذ ساعتين فقط، من لسان الشخص الوحيد الذي تعرّف على حالتي!

- على أية حال.. سيادتك لن تموت عبثاً، لأن شخصا ما سيضعك في المكان اللائق كنموذج للكرامة.

وتصنّع الرئيس دهشة هزلية، وقال:

- أشكرك لأنك نبهتني.

كان يأكل بنفس الطريقة التي يفعل بها الأشياء الأخرى؛ في تأن وأناقة شديدة، وفي نفس الوقت كان ينظر إلى عيني هوميروس مباشرة، بحيث تكوّن لدى الأخير انطباع بأنه يرى ما يفكر فيه.

وبعد محاورة طويلة، تركزت على ذكريات الماضي، والحنين إلى الأيام الخوالي والوطن ابتسم ابتسامة ماكرة، وقال:

- كان قراري هو عدم الاهتمام بجثتي، إلا أنني أرى الآن أن عليَّ أن التزم الحيطة، كما لو كنت أحد شخصيات رواية بوليسية، كي لا يعثر على جثتي أحد.

فقال هوميروس ـ مداعباً هو الآخر:

- لن ينفعك ذلك في المستشفى.. فليس هناك أي سر يمكن أن يدوم بها أكثر من ساعة!

عندما انتهيا من تناول القهوة، قرأ الرئيس فنجانه، وعاد إلى انقباضه ويأسه: كانت الرسالة التي قرأها في قعر فنجان القهوة هي ذاتها، ومع ذلك لم يتوتر. دفع الحساب ، بعد أن راجعه عدة مرات، وعدّ النقود عدة مرات، وترك بقشيشاً ضئيلاً، لم يستحق سوى همهمة الجرسون.

وعند وداعه لهوميروس قال:

- كانت فرصة طيبة.. ليس عندي تاريخ محدد لإجراء العملية.. ولم أقرر بعد ما إذا كنت سأجريها أم لا.. ولكن إذا انتهت الأمور على خير، فإننا سنلتقي مرة أخرى.

فقال هوميروس:

- ولم لا نلتقي قبل ذلك.. إن امرأتي لاثارا طباخة ماهرة.. تطبخ للأثرياء، ولا أحد مثلها يطبخ الأرز بالجمبري، ويسعدنا أن تكون سيادتك معنا في البيت في إحدى الليالي.

فقال الرئيس:

- الجمبري ممنوع عليّ.. ولكنني سآكله بسرور.. ولكن قل لي متى؟

فأجابه هوميروس:

- الخميس هو يوم عطلتي.

فقال الرئيس:

- حسناً.. يوم الخميس.. في الساعة السابعة مساءً سأكون في بيتك، وستكون فرصة طيبة.

فقال هوميروس:

- سأمرّ أنا على سيادتك.. أو تيري راميس ١٤ شارع الصناعة، خلف المحطة.. هل هذا صحيح؟

فأجابه الرئيس:

- صحيح!

ونهض من مكانه أكثر ابتهاجاً من أي وقت مضى، وهو يقول:

- يبدو أنك تعرف حتى رقم الحذاء الذي أنتعله؟!

فأجاب هوميروس مسروراً:

- طبعاً يا سيدي: ٤١

إن الشيء الذي لم يروه هوميروس على الرئيس، في حين أنه كان يرويه لأعوام طويلة لكل من أراد أن يستمع

إليه، هو أن هدفه الأصلي لم يكن على هذه الدرجة من المثالية أو البراءة.

كان كغيره من سائقي الإسعاف، قد عقد اتفاقاً مع بعض مؤسسات الدفن وشركات التأمين من أجل تسهيل بيع خدماتها لمرضى المستشفى، خاصة المرضى الأجانب محدودي الدخل. كان المكسب قليلاً، إضافة إلى أنه يتقاسمه مع موظفي المستشفى الذين تكون تحت أيديهم التقارير السرية للمرضى ذوي الحالات الصحية الحرجة، إلا أن هذا المكسب كان عزاء طيباً ودعماً جيداً لرجل منفي بلا مستقبل، لا يعيش إلا بالكاد مع زوجته وولديه بمرتب يثير السخرية!

كانت امرأته لاثارا دابيس أكثر واقعية، كانت سمراء رقيقة من سان خوان في بورتوريكو.. ناعمة وقوية، وذات بشرة تميل إلى لون السكر المحروق، وعينين جريئتين، تلائم طباعها الحادة.

كانا قد تعرفا إلى بعضهما في قسم الخدمات الخيرية بالمستشفى، حيث كانت تعمل كمساعدة في أي عمل يحتاجون إليها فيه، بعد أن كان أحد تجار بلدها قد جاء

بهـا إلى جنيـف لتعمـل كمربيـة أطفـال، ولكنـه تركهـا لتواجه مصيرها. تزوجا وفقاً للطقوس الكاثوليكية على الرغم من أنها كانت غير كاثوليكية، وسكنا في شقة صغيرة مكونة من صالة وغرفتين في الدور الثامن بأحد البنايات التي يسكنها مهاجرون أفارقة.. وأنجبا طفلة عمرها الآن تسعة أعوام تدعى باربارا، وطفلاً عمره سبعة أعوام يدعى لاثارو تبدو عليه بعض علامات تخلف عقلي طفيف.

كانت لاثارا ذكية وذات طباع حادة، ولكنها كانت طيبة القلب.

كانت تعتبر نفسها خير من يمثل برج الثور، وكانت تصدق بشكل أعمى كل التكهنات التي تقال عن برجها. كما كانت تحلم بأن تعمل كفلكية أو عرّافة لأصحاب الملايين، وهو ما لم تتمكن من تحقيقه، ومع هذا كانت تجلب إلى بيتها بين الحين والآخر، بعض المواد والأشياء التي تستخدم في إعداد مآدب السيدات الموسرات اللاتي يرغبن في الظهور أمام ضيوفهن بمظهر أرستقراطي لائق، ويحاولن

إيهام أولئك الضيوف بأن تلك الأكلات الكاريبية الشهية هي من صنع أيديهن.

أما هوميروس، فكان خجولاً، ويتميز بأنه رزين ومتعقل، ولا يحاول أن يتجاوز حدود عمله المتواضع. ومع ذلك لم تكن لاثارا تتخيل الحياة بدونه لبراءته وسلامة نيته وحجم (سلاحه)!

كانت حياتهما في السنوات الأولى من ارتباطهما تسير بشكل مرضٍ وعلى خير ما يرام، غير أن السنوات التي تلتها كانت صعبة، بعدما أخذ طفلاهما يكبران. وفي الوقت الذي وصل فيه الرئيس إلى جنيف، كانا قد أخذا في إنفاق ما ادخراه خلال الخمس سنوات الأخيرة. ولذلك ما أن اكتشف هوميروس وجود الرئيس بين مرضى المستشفى غير المعلن عنهم، حتى أفرطا في آمالهما.

في البداية، لم تكن لديهما فكرة عما سيطلبانه منه، ولا عن كيفية الاستفادة من وضعه وظروفه. فكرا في اللحظة الأولى أن يبيعا له خدمات الدفن الكاملة، ومن ضمنها التخيط والنقل إلى مثواه الأخير في بلده، ولكنهما

أدركا شيئاً فشيئاً بأن موته لم يكن قريباً كما قد ظنا ، ولذلك كانا بعد يوم الغداء مصعوقين بشكوكها.

والواقع أن هوميروس لم يكن قائد فرقة جامعية أو أي شيء من هذا القبيل في يوم من الأيام في بلاده، والمرة الوحيدة التي شارك فيها في الحملة الانتخابية ، كانت في ذلك اليوم الذي التقطت فيه الصورة ، والتي عثر عليها بمعجزة بعد أن كانت تائهة في صندوق الملابس.. غير أن حماسه في تلك الفترة كان حقيقياً ، وكان أيضاً قد أجبر على الفرار من بلده بعد مشاركته في المقاومة الشعبية ضد الانقلاب العسكري الذي أطاح بالانتخابات وقضى على الديمقراطية التي كانوا يحلمون بها. وفي الحقيقة فإن السبب الوحيد الذي جعله مستمراً في الحياة في جنيف، بعد كل تلك السنوات هو إحباطه ويأسه أو فقره الروحي، ولهذا فإن كذبة صغيرة أو كذبة كبيرة، لا ينبغي لها أن تكون عائقاً أمام حصوله على بعض أفضال الرئيس!

كانت المفاجأة الأولى بالنسبة لهما ، هي علمهما بأن المنفي العظيم يسكن في فندق من الدرجة الرابعة في حي (جروتي) الكئيب، وسط المهاجرين الآسيويين وفراشات

الليل. وأنه يأكل وحيداً في دور العطف على الفقراء. في الوقت الذي كانت فيه جنيف مليئة بأماكن المعيشة والإقامة الجيدة اللائقة بالسياسيين المنكوبين أمثاله.

كان هوميروس يراه يوماً بعد يوم يكرر نفس نشاطات ذلك اليوم الذي واجهه فيه. كان قد صاحبه بنظراته على مسافة كانت أحياناً قصيرة وخالية من الحذر في نزهاته الليلية بين الأسوار الكئيبة المكسوة بالنباتات المتسلقة، في أحياء المدينة القديمة. وكان قد رآه غارقاً في التأمل ساعات طويلة أمام تمثال (كالبينو)، وكان قد صعد خلفه خطوة خطوة أثناء ارتقائه السلم الحجري، يكاد يختنق بشذى الياسمين القوي، لتأمل لحظات الغروب البطيئة في الصيف، من على قمة (بورج لي فور). ورآه في إحدى الليالي واقفاً بدون معطف واق من المطر وبدون مظلة، في طابور الطلبة الذين كانوا يودون سماع كونشرتو (روبنستين).

يومها قال لزوجته: لا أدري كيف لم يصب بنزلة شعبية في مثل هذا البرد والمطر؟!..

ويوم السبت الماضي، عندما بدأ الطقس يتغير، رآه يشتري معطفاً خريفياً بياقة من جلد السنور الصناعي من

محل في (سوق البراغيث)، وليس من المحلات المضيئة والفخمة في شارع دي رون التي يرتادها عادة الأمراء والملوك واللاجئون السياسيون!.

عندما عرفت لاثارا كل ذلك من زوجها قالت:

- إذن فنحن نجري وراء سراب!.. إنه بخيل فيما يبدو، وقذر..

وقد يكون مستعداً لأن يدفن في قبر جماعي من مقابر الصدقة والعطف على الفقراء.. لن نحصل منه على شيء!

فقال هوميروس:

- ربما كان فقيراً بالفعل، بعد كل هذه السنوات من العيش بدون وظيفة، والانفاق من راتب تقاعدي.

فردت عليه لاثارا:

- اسكت أيها الزنجي الملعون.. أن تكون من برج الحوت شيء، وأن تكون أحمقَ شيء آخر... كل الناس يعرفون أنه نهب كل ذهب الحكومة، وأنه أكثر المنفيين من مارتينيكا ثراءً.

كان هوميروس الذي يكبر زوجته لاثارا بعشرة أعوام، قد نما وترعرع وهو معجب بأن الرئيس قد أكمل تعليمه الجامعي، وهو يشتغل عامل بناء.

في حين كانت لاثارا قد ترعرعت وسط فضائح الصحف المناهضة التي تقرأها أو تسمع بها وهي تعمل مربية أطفال في أحد البيوت المعادية للرئيس.

وهكذا فإن هوميروس الذي عاد، وهو على وشك الاختناق من الفرح في تلك الليلة، بعدما دعاه الرئيس لتناول الغداء معه، لم يلق من زوجته أي اكتراث أو فرح مثيل للفرح الذي كان يغمره. بل لقد أصابها الضيق والانزعاج لأن زوجها لم يطلب منه أي شيء من الأشياء التي كانوا يحلمون بها، بدءاً بمنح للأطفال، وانتهاءً بوظيفة أفضل لزوجها في المستشفى أو في غيرها.

وبدا لها بمثابة تأكيد لشكوكها قرار الرئيس - الذي عرفته من زوجها، بأن ترمى جثته للصقور، حتى لا يتعرف عليه أحد بعد مماته، بدلاً من صرف نقوده على نقل الجثة والدفن بالشكل اللائق والكريم.

وكان ما طفح بالكيل، هو الخبر الذي احتفظ به هوميروس، حتى نهاية حديثه مع لاثارا: دعوة الرئيس لزيارتهم في البيت، وتناول الأرز مع الجمبري ليلة الخميس.

فصرخت لاثارا:

- هذا ما كان ينقصنا!.. أن يموت هنا مسموماً بالجمبري المعلَّب، ونجد أنفسنا مضطرين إلى دفنه بالمال الذي ندخره للأطفال!

غير أن وفاءها لزوجها، جعلها أخيراً ترضخ لمشيئته، فاستعارت من إحدى جاراتها ثلاثة صحون مصنوعة من الفضة الألمانية الخالصة، مع ملحقاتها من أدوات المائدة، ووعاءً زجاجياً للسلطة، كما استعارت من جارة أخرى الإبريق الكهربائي المخصص لصنع القهوة، ومن جارة ثالثة مفرشاً مطرزاً للمائدة، وفناجين خزفية منقوشة للقهوة.

واستبدلت الستائر القديمة بأخرى جديدة، لا يستعملونها إلا في الأعياد والمناسبات السعيدة. ورفعت أغطية الأثاث، ولمّعت جوانبه، وقضت نهاراً كاملاً في تنظيف الشقة وإزالة الغبار العالق بمحتوياتها، وتبديل الأشياء من أماكنها، حتى استطاعت في النهاية الحصول

على عكس ما يناسبها، وكانت تقصده لتثير عطف المدعو بفقر الأثاث وتواضع المكان.

في ليلة الخميس، وبعد أن التقطت أنفاسها من شدة الجهد الذي بذلته لتنظيف سلالم الطوابق الثمانية.. ظهر الرئيس على الباب بمعطفه الجديد وقبعته الصفراء التي انقضى عهدها، وبيده وردة واحدة فقط، جاء بها ليقدمها إلى لاثارا.

وانتابت لاثارا الدهشة والإعجاب برجولة الرئيس وسلوكه الذي لا يتسم به إلا الأمراء! ولكنها بعيداً عن كل ذلك رأته كما كانت تظنه: مزيفاً وجشعاً!..كما بدا لها قليل الحياء، لأنها كانت قد هيأت طبختها، ثم فتحت نوافذ البيت حتى لا يتشبع برائحة الجمبري، ومع ذلك فإن أول ما فعله عند وصوله هو تنفسه بعمق، وكأنه في غيبوبة مفاجئة، ثم صاح وهو يغمض عينيه ويفتح ذراعيه على اتساعهما:

- آه.. رائحة بحرنا!

وبدا الرئيس في عيني لاثارا بخيلاً، لأنه جاء وفي يده وردة واحدة فقط، كان بلاشك قد قطفها من أحد أحواض الزهور العامة.

كما بدا لها عاتياً ومتجبراً، لنظرة الازدراء واللامبالاة التي وجهها إلى قصاصات الصحف التي تصوره وهو في أوج مجده الرئاسي، ورايات حملته الانتخابية، التي كان هوميروس قد علقها على الحائط بالصالة، لتكون في استقباله حين زيارته لهم، كذلك بدا لها قاسياً ومتحجر القلب، لأنه لم يتوجه بكلمة تودد رقيقة واحدة أو تحية إلى الصغيرين: باربارا ولاثارو، اللذين كانا قد جهّزا له هدية متواضعة يقدمانها له حين دخوله عليهم، ثم إنه خلال حديثه أثناء تناول الطعام أبدى ضجره من شيئين: الكلاب والأطفال!

لقد كرهته لاثارا.. إلا أن واجب الضيافة الكاريبية قد فرض نفسه عليها، وعلى أي اعتبار آخر!

كانت لاثارا قد ارتدت ثوباً إفريقياً، اعتادت ارتداءه في أيام وليالي الأعياد فقط، وتقلدت بكل ما لديها من عقود وأساور.

وخلال تناول الطعام، لم تقم بأية إشارة أو تنطق بأية كلمة زائدة، وكانت في منتهى الحرص واللباقة.

والواقع إن الأرز بالجمبري الذي أعدته لاثارا لم يكن أفضل ما تجيد طهيه، ومع ذلك فقد هيأته باهتمام فائق وقدمته بشكل جيد.

ملأ الرئيس صحنه مرتين، وأفرط في الثناء على الطعام اللذيذ، وأبدى إعجابه الشديد بشرائح الموز المقلية، وسلطة الأفوكادو، لكنه لم يشارك هوميروس ولاثارا حنينهما إلى الماضي الأنتيلي.

كانت لاثارا مكتفية بالإنصات، إلى أن أثار هوميروس ـ عند تناول الحلوى ـ قضية وجود الخالق بلا داعٍ، ثم وجد نفسه في طريق مسدود، فعلق الرئيس قائلاً:

- أنا أعتقد بوجود الخالق.. ولكنه مختلف كل الاختلاف عن الكائنات البشرية.. إنه مشغول بقضايا أهم وأكبر.

فقالت لاثارا ـ موجهة الحديث وجهة أخرى:

- أنا أعتقد بوجود الأبراج، وتأثيرها في حياة البشر.

وتأملت رد فعل الرئيس، ثم سألته:

- ما هو يوم مولد سيادتك؟
- الحادي عشر من مارس.
- آه.. لم يكن ممكناً أن يكون غير ذلك.

قالت ذلك بشيء من التوتر والشعور بالفوز، ثم تابعت:

- أليس غريباً أن يكون اثنان من برج الحوت جالسين على مائدة واحدة؟!.

وعاد الرجلان إلى حديثهما عن الخالق، بينما ذهبت لاثارا إلى المطبخ لإعداد القهوة، بعدما أزالت بقايا الطعام ورفعت الأدوات عن المائدة.. وكانت ترجو أن تنتهي تلك الليلة على خير.

وعند عودتها إلى الصالون، حاملة صينية القهوة، وصلت إلى أذنيها جملة عابرة صدرت من الرئيس، جعلتها مذهولة؛ "أرجو ألا ينتابك الشك يا صديقي العزيز بأن أسوأ ما جرى لبلدنا المسكين هو أنني كنت رئيساً له".

رأى هوميروس زوجته لاثارا واقفة عند الباب، وقد تجمدت في مكانها، وهي تحمل صينية القهوة، وظن أنها سيغمى عليها، بينما حدّق الرئيس فيها وقال:

- لا تتعجبي يا سيدتي.. فإنني أتكلم بكل صدق ومن كل قلبي!

ثم التفت إلى هوميروس وقال:

- من حسن الحظ.. أنني أدفع الآن غالياً ثمن حمقي!

صبت لاثارا القهوة، ثم أطفأت الشمعة التي كانت تتوسط المائدة، والتي كانت تسبب إزعاجاً. واهتمت لأول مرة بالضيف الذي لم يكن مرحه ومداعبته كافيان لتبديد ضجرها وقلقها. وازداد فضولها عندما انتهى من تناول قهوته، وقلب الفنجان في الطبق، لتستقر ترسبات البن، وترسم خطوط مستقبله الغامض!

قص لهم الرئيس في الحديث الذي أعقب تناول الطعام بأنه كان قد اختار جزيرة (مارتينيكا) مكاناً لمنفاه، بسبب الصداقة التي تربطه بالشاعر إيميه سيزيري الذي كان قد نشر لتوه ديوانه "دفتر العودة إلى الوطن الأم"، والذي وفر له المساعدة لكي يبدأ حياته الجديدة.

بهذه المساعدة وببقية ميراث زوجته، اشترى منزلاً مبنياً من الخشب على سفح تل (فورت دي فرانس)، كانت

نوافذه مغطاة بشبك معدني، وكان به شرفة بحريةمليئة بأصص الزهور الغريبة، حيث كان النوم بها متعة كبيرة ما بين جلبة صرّار الليل والنسائم المحملة بعبير عسل قصب السكر والروم الآتية من معصرةالقصب القريبة من التل.

ظل هناك مع زوجته التي كانت تكبره بأربعة عشر عاماً، والتي كانت مريضة منذ ولادتها، محاصراً بمصيره المجهول، يمضي أوقات فراغه في قراءة أعمال الكتاب اللاتينيين الكلاسيكيين، مقتنعاً بأن ذلك النشاط، إنما هو خاتمة حياته، وكان عليه أن يقاوم خلال تلك السنوات إغراءات المغامرة لاستعادة السلطة، التي كان أتباعه المبعدون يقترحونها عليه. قال:

- ولم أعد أفتح أي رسالة تصلني، بعدما اكتشفت أن أشد تلك الرسائل إلحاحاً، ليست بذات الإلحاح بعد فوات أسبوع، وأنه بعد شهرين لا يتذكرها حتى من كتبها وأرسلها لي.

نظر الرئيس إلى لاثارا حين أشعلت سيجارة، فتناولها منها بحركة جشعة من أصابعه، وأخذ منها نفساً عميقاً، واحتفظ بالدخان في صدره قليلاً، ثم نفثه.

وأصيبت لاثارا بالدهشة، وتناولت علبة السجائر والكبريت وهمت بإشعال سيجارة أخرى، فأعاد الرئيس إليها سيجارتها قائلاً:

- إنك تدخنين بشكل يصعب علي معه مقاومة إغراء التدخين!

ثم أضاف ـ بعد أن سعل قليلاً:

- تركت التدخين منذ سنوات كثيرة، إلا أنه لم يتركني بشكل كامل.. وفي بعض الأحيان استطاع أن يغلبني، كما حدث الآن.

وهزّه السعال مرتين أخريين، وعاوده الألم، فنظر إلى ساعة جيبه، ثم تناول قرصي الليل المهدئين، وراح يتأمل قعر فنجان القهوة: لم يكن هناك أي تغيير.. غير أنه لم يصب هذه المرة بالفزع.

قال:

- بعض أتباعي القدامى صاروا رؤساء بعدي!

فقال هوميروس:

- تقصد ساياجو؟

فعلّق الرئيس:

- سایاجو وآخرون، كلهم مثلي..اكتسبنا شرفاً لم نكن نستحقه، في مهنة لم نكن نجيدها.. البعض يطلب السلطة فحسب ، لكن الغالبية تبحث عما هو دون ذلك: الوظيفة!

غضبت لاثارا وتوجهت إليه بالسؤال:

- هل تعرف سيادتك ما الذي يقال عنك؟

فتدخل هوميروس ـ وقد بدا عليه الفزع:

- إنه كذب.. كذب وافتراء!

فقال الرئيس بهدوء سماوي:

- كذب أو غير كذب.. عندما يتعلق الأمر بأحد الرؤساء، فإن أسوأ أنواع الخزي والعار، يمكن أن تتوفر في الشيئين في ذات الوقت: الصدق والكذب!

كان قد عاش في مارتينيكا كل أيام نفيه، منعزلاً عن الاتصال بالعالم الخارجي، لا يعلم عنه إلا الأخبار القليلة التي كان يطالعها في الصحيفة الرسمية. وعاش حياته مواظباً على تعلم اللغة الإسبانية واللاتينية في إحدى المدارس الرسمية، وكان بالإضافة إلى ذلك يقوم ببعض الترجمات بناء على طلب صديقه الشاعر إيميه سيزيري.

كانت حرارة أغسطس لا تطاق، ولذلك كان يبقى ممدداً جسده في أرجوحته الشبكية المعلقة حتى منتصف النهار، ناعساً على صوت دوران المروحة المعلقة بسقف غرفة النوم المجاورة. وكانت زوجته تشغل نفسها بالاعتناء بالطيور المغردة المحبوسة في أقفاصها، حتى في ساعات النهار التي تشتد فيها الحرارة، محتمية من الشمس بقبعة من الخوص ذات حافة عريضة مزينة بزهور وفواكه صناعية.

وعندما تأخذ درجة الحرارة في الهبوط، وتشتهي الأجساد النسائم العليلة، كان يجلس في الشرفة البحرية الواسعة، على كرسيه الهزاز ويحدق في البحر أمامه، إلى أن يهبط الظلام، في حين كانت زوجته تقبع في كرسيها الهزاز، محتفظة بقبعتها الممزقة فوق رأسها ، تراقب السفن العابرة في البحر أمامها.. وبين الحين والآخر كانت تهتف:

- هذه السفينة ذاهبة إلى بورتوريكو!.. وهذه السفينة تشق طريقها في البحر بصعوبة بسبب ثقل حمولتها من موز بورتوريكو!

جميع السفن التي كانت تمر أمامها، كانت تبدو لها إما قادمة من بلدها أو راحلة عنها. وكان الرئيس يمنحها أذناً صماء، ولا يعلق على ما تقوله، مع أنها في النهاية استطاعت أن تنسى أفضل منه، وفقدت ذاكرتها قبله!

على هذه الحال، كانا يجلسان حتى ساعات الفجر، أو ساعات الصباح الصاخبة، فيدخلان إلى البيت منهكين ومتعبي الجسم.

في أحد شهور أغسطس، من تلك السنوات، وبينما كان يتصفح الجريدة في الشرفة، قفز الرئيس من على كرسيه، وصاح مندهشاً:

- يا للعجب.. لقد مِتُّ في (أستوريل)!

وفزعت الزوجة من الخبر، رغم أنها كانت شبه نائمة، كان الخبر عبارة عن ستة أسطر في الصفحة الخامسة من الجريدة التي كانت تطبع على بعد خطوتين من داره، والتي كانت تنشر له بعض الترجمات من حين لآخر، وكان مدير تحريرها يزوره في البيت كل فترة.

كان الخبر المنشور يقول بأن الرئيس قد توفي في (أستوريل) بـ(لشبونة) منتجع الأرستقراطية البائدة في

أوروبـا ، والواقـع أنـه لم يـذهب إلى هنـاك مطلقـاً ، وربمـا كـان هـذا المكـان هـو الوحيـد في العـالم الـذي لم يكـن يرغب في أن يموت به.

بعـد عـام واحـد ماتـت زوجـة الـرئيس معذبـة بالـذكرى الوحيـدة الـتي كانـت تؤرقهـا في أيامهـا الأخـيرة: ذكـرى ولـدها الوحيـد الـذي كـان قـد شـارك في خلـع أبيـه مـن الحكم، والذي قتل فيما بعد بأيدي زملائه!

تحسر الرئيس وقال:

- هكذا نحن!.. وليس هنـاك أي شـيء يمكـن أن يحررنا مما نحن فيه.. قارة حبلى بحثالات الكون أجمع، نتيجة زواج غير شرعي يخلو من لحظات حب.. أولاد من ثمار الخطف والاغتصاب والعلاقات السيئة والخداع والعداوة.

ثم واجه عيني لاثارا الأفريقيتين، اللتين كانتا تتأملانه بـلا تعـاطف أو شـفقة، وبحنكـة الأسـتاذ المجـرب حـاول أن يهدئ من روعها قائلاً:

- إن كلمة هجين تعني خلط الدموع بالدم المراق.. فما الذي يمكن أن ننتظره من مشروب كريه كهذا؟

حدقت فيه لاثارا بصمت ثقيل كصمت الأموات، غير أنها تمالكت نفسها وسيطرت على مشاعرها تجاهه، قبل أن ينتصف الليل بقليل، وودعته بقبلة رسمية.

ورفض الرئيس فكرة أن يصحبه هوميروس إلى الفندق، ولكنه لم يستطع منعه من مساعدته في الحصول على سيارة أجرة توصّله.

وعند عودة هوميروس إلى المنزل، وجد إمرأته تكاد تنهار من الانفعال والغضب.

قالت له:

- إنه أحق رئيس في العالم بالسقوط.. إنه ابن عاهرة حقيقي.

وعلى الرغم من محاولات هوميروس تهدئتها إلا أنهما قضيا ليلة نكدة حالكة السواد.

لم تنكر لاثارا أنه من أكثر الرجال الذين شاهدتهم بهاءً وجمالاً، وأنه ذو قدرة خارقة على جذب النساء وإيقاعهن في حبائله، وأنه على الرغم من شيخوخته ومرضه يبدو مثل نمر في الفراش!

كانت تعتقد بأنه قد بدد ما حباه الله به من مواهب وقدرات في الاحتيال والنصب.

ولم تكن تحتمل زهوه وادعاءه بأنه كان أسوأ رئيس لبلاده، ولم تصدق ما يدعيه من زهد في المال والثروة، لأنها كانت على يقين بأنه يمتلك نصف مزارع السكر في مارتينيكا.

ولم تقبل نفاقه أو ازدراءه للسلطة، لأنها كانت تدرك بجلاء بأنه مستعد لدفع كل ما يملك في دنياه لكي يعود إلى الرئاسة، ولو لدقيقة واحدة، ليجعل معارضيه واعداءه يسفّون التراب!

وأضافت أخيراً:

- وكل هذا ليأسرنا.. ويجعلنا نخضع له، ونكون تحت قدميه.

وعلق هوميروس على ما قالته:

- وما الذي يمكن أن يكسبه من هذا؟

فأجابته:

- لا شيء... غير أن التبجح والغرور مرض لا علاج له!

كان غضبها شديداً إلى الحد الذي لم يستطع معه هوميروس تحملها في تلك الليلة في السرير، فذهب لقضاء بقية ليلته على كنبة الصالون، متدثراً ببطانية.

ونهضت لاثارا من فراشها في ساعات الصباح الأولى، عارية من كل ثيابها، تماماً كما اعتادت أن تنام كل ليلة، أو عندما تكون وحيدة داخل البيت.. وأخذت تحدث نفسها، وخلال لحظات معدودة، كانت قد أزالت من ذاكرتها كل أثر لذلك العشاء غير المرغوب فيه. ومع ظهور أول خيوط النهار، أعادت الأشياء التي كانت قد استعارتها، واستبدلت الستائر الجديدة بالقديمة، وأعادت قطع الأثاث إلى أماكنها التي كانت بها، حتى عاد البيت إلى حالته قبل زيارة الرئيس: فقيراً وبسيطاً.وأخيراً أزالت من على الحائط قصاصات الصحف والرايات والشعارات الخاصة بالحملة الانتخابية البغيضة، وألقت بها في صندوق القمامة وهي تصرخ: إلى الجحيم!

بعد مرور أسبوع على ذلك العشاء، وجد هوميروس الرئيس بانتظاره أمام باب المستشفى، ورجاه أن يصحبه إلى الفندق.

صعدا الطوابق الثلاثة العليا، حتى وصلا إلى غرفة بالسطح، بها نافذة وحيدة في السقف، تطل على سماء وردية، وكان يشق الغرفة حبل غسيل، نشرت عليه بعض الملابس لتجف، كما كان هناك سرير يحتل نصف مساحة الغرفة وكرسي بسيط وابريق وحوض متنقل للغسيل، علاوةعلى دولاب ملابس قديم ذو مرآة مضبّبة.

أحس الرئيس بما يدور بداخل هوميروس من تساؤلات، فقال له، كأنه يعتذر:

- إنه نفس الجحر الذي قضيت به سنوات دراستي الجامعية، ثم أخرج كيسا مخملياً، وسحب منه ما تبقى له من ثروة، وفرشها على السرير: بعض أساور ذهبية مرصعة بأحجار كريمة مختلفة.. قلادة من اللؤلؤ بثلاث دورات.. قلادتان من الذهب المطعم بالياقوت والزمرد.. ثلاث سلاسل ذهبية بها أيقونات دينية.. قرطان من الذهب مرصعان بالمرجان.. وقرط آخر مرصع بالماس.. وقرط ثالث من الذهب المخلوط بالفضة.. وصندوقان صغيران لحفظ الجواهر.. ومشابك للشعر.. وأحد عشر خاتماً بفصوص من أحجار متنوعة وطوق للشعر مزين بأحجار وفصوص براقة،

ربما كان في زمانه لإحدى الملكات، ووقع عليه من أحد المزادات.

- بعد ذلك أخرج من علبة أخرى ثلاثة أزواج فضية من أزرار القمصان، وزوجين ذهبيين مع مشابكها الخاصة بأربطة العنق، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض.

وأخيراً أخرج من إحدى علب الأحذية ستة أوسمة: اثنين ذهبيين، وواحداً فضياً، وثلاثة نحاسية.

وقال أخيراً - بعدما عرض بضاعته:

- هذا هو كل ما تبقى لي من الحياة!

لم يكن عنده أي اختيار آخر سوى بيع أشيائه لتدبير نفقة علاجه ومصاريف العملية الجراحية التي من المفترض أنه سيجريها.

وكان يتمنى أن يقوم هوميروس، بمساعدته في ذلك، على أن يبقى الأمر سراً. في حين أن هوميروس لم يكن يظن أنه قادر على أداء تلك المهمة، ما لم يوفر له الرئيس فواتير الشراء!

شرح له الرئيس بأن تلك الأشياء، كانت من نفائس زوجته، التي ورثها بعد وفاتها، وكانت هي بدورها قد

ورثتها من جدة لها ذات أصل ملكي، كانت تمتلك يوماً مجموعة أسهم في مناجم الذهب في كولومبيا، بينما الساعة والأزرار ومشابك أربطة العنق، فملكه هو أما الأوسمة، فإنها بالطبع لا تخص أحداً غيره، ثم قال - بعد أن انتهى من شرحه:

- ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن تكون لديه فواتير شراء لأشياء كهذه!

لكن هوميروس لم يتزحزح عن موقفه!.. ففكر الرئيس قليلاً، ثم قال:

- في هذه الحالة، ليس أمامي إلا أن أواجه الموقف بنفسي!

وراح يلملم نفائسه بهدوء شديد، ثم أضاف:

- أرجوك أن تعذرني ياعزيزي.. غير أني أود أن أؤكد لك بأنه ليس هناك فقر أسوأ من فقر رئيس مخلوع.. وحتى الحياة والتمسك بها يصبح عاراً!

في تلك اللحظة، كان هوميروس يراه بقلبه لا بعقله، فتخلى عن مطالبته بالفواتير!

في تلك الليلة ، عادت لاثارا إلى البيت متأخرة، وشاهدت وهي مازالت واقفة على عتبة الباب، بريق النفائس والمجوهرات، تحت ضوء الصالون الزئبقي، وكما لو كانت قد رأت عقرباً في الفراش، صاحت مذعورة:

- لاتكن فظاً أيها الزنجي.. لماذا جئت بهذه الأشياء إلى هنا؟ وأقلقتها إجابة هوميروس أكثر، بينما جلست تفحص الجواهر والنفائس واحدة بعد واحدة، بدقة شبيهة بدقة الصائغ، ثم قالت وهي تتنهد تعبيراً عن الحسرة:

- لابد أنها ثروة!

ثم نظرت إلى زوجها، دون أن تجد مخرجاً لورطته، وقالت:

- عجباً!.. كيف يمكن أن نعرف إن كان كل ما يقوله الرجل صدقاً؟!

- ولم لا يكون صادقاً.. لقد رأيته منذ قليل يغسل ملابسه بنفسه، ويعلقها على حبل في غرفته حتى تجف، مثلما نفعل نحن!

- يفعل ذلك لبخله!

- ولم لا يكون لفقره؟!

وعادت لاثارا إلى فحص المجوهرات والنفائس، ولكن بدقةٍ أقل هذه المرة، ربما لأنها اقتنعت هي الأخرى أيضاً.

وفي صباح اليوم التالي ارتدت أفضل ثيابها، وتزينت بالمجوهرات التي كانت تبدو لها غالية جداً، ووضعت في أصابعها كل الخواتم التي بإمكانها أن تضعها.. حتى إبهامها وضعت به خاتماً، ولبست كل الأساور، وذهبت لتبيعها.

وقبل أن تخرج من باب البيت قالت وهي تبتسم وتتباهى:

- لنر من الذي يتجرأ ويطلب فواتير من لاثارا دابيس؟!

اختارت محل مجوهرات، تعرف أن صاحبه مشهور بالكبرياء أكثر من شهرته بالسمعة الطيبة، كما تعرف أن البيع والشراء فيه يتمان دون أسئلة كثيرة.

دخلت المحل بخطوات ثابتة، رغم ما كان ينتابها من قلق، استقبلها أحد العاملين بالمحل بانحناءة مسرحية، وقبّل يدها.

كان يرتدي بدلة رسمية، وكان هزيلاً وشاحباً.

كان المحل بالداخل أشد إنارة من ضوء النهار خارجه، بسبب المرايا الكثيرة به والأضواء الباهرة، ولذلك بدا المحل كأنه من البللور.

ودون أن تنظر إلى هذا العامل الذي استقبلها وقبّل يدها، واصلت تقدمها في عمق المحل حتى نهايته. ودعاها البائع إلى الجلوس أمام واحد من ثلاثة مكاتب منفصلة، طراز لويس الخامس عشر، تعمل عمل (فاترينات) العرض، ثم جلس في مواجهتها وبسط منديلاً ناصع البياض فوق المكتب، ثم قال مصطنعاً الرقة:

- في خدمتك يا سيدتي!

فخلعت لاثارا الخواتم والأساور والأقراط، وصفّتها فوق المنديل في دقةوانتظام، وكأنها قطع شطرنج.

ووضع الجواهرجي عدسته على عينه اليسرى، وبدأ يفحص المجوهرات بكل دقة وصمت، وكأنه طبيب يفحص ورماً لدى أحد مرضاه!..

وبعد وقت ليس بالقليل، وبينما هومستمر في الفحص، سألها:

- من أين أنت يا سيدتي؟
- آه يا سيدي... من مكان بعيد جداً.

أجابته وهي تتحسر، فقال:

- أتصور ذلك يا سيدتي!

وعاد إلى صمته، واستغرق في فحصه للمجوهرات، بينما كانت لاثارا تراقبه، بلا شفقة، بعينيها الذهبيتين الحادتين.

وخص الجواهرجي طوق الشعر المرصع بالماس باهتمام استثنائي، وعزله بعيداً عن غيره من المجوهرات، في حين تنهّدت لاثارا، وقالت:

- لاشك أن حضرتك من برج العذراء!

ودون أن يتوقف عن فحص المجوهرات، قال:

- وكيف تعرفين ذلك؟
- من تصرفك وسلوكك!

ولم يصدر منه أي تعليق حتى انتهى من فحصه، ثم توجه إليها بالسؤال بنفس رزانته الأولى:

- من أين جئت بكل هذا يا سيدتي؟!

- إنه ميراثي من جدتي.. توفيت السنة الماضية في باراماريبو عن سبعةوتسعين عاماً.

نظر الجواهرجي في عينيها، ثم قال:

- إنني آسف جداً.. إن القيمة الوحيدة لهذه الأشياء هو قيمة ما تزنه الأشياء الذهبية فقط.

وأخذ الطوق بأطراف أصابعه، وحرّكه تحت الضوء الساطع، فازداد بريقاً ولمعاناً، قال:

- عدا هذا.. إنه قديم جداً.. قد يكون فرعونياً، ولولا سوء حالة الماسات التي ترصعه ، لكان من الصعب تقييم ثمنه.. ومع ذلك، فإن له قيمة تاريخية!

ثم أضاف:

- أما أحجار الجواهر الأخرى كالياقوت والزمرد والمرجان، فكلها بلا استثناء مزيفة.. لاشك أن الأصلية كانت جيدة!

ثم قال وهو يجمع الأشياء المعروضة أمامه، ليردها إليها:

- إن انتقالها من يد إلى يد أخرى، جيلاً بعد جيل، أدى بلاشك إلى فقدان الأحجار الأصلية، ولذلك تم استبدالها بأخرى غير أصلية.

وشعرت لاثارا بغثيان حاد، وتنهدت بعمق، وتسلط عليها الفزع، في حين قال الجواهرجي في نبرة تعزية:

- يحدث هذا باستمرار يا سيدتي.. أنا آسف!

- إنني أعلم ذلك..ولهذا أريد أن أتخلص منها.

وحينذاك شعرت لاثارا بأنها أصبحت خارج إطار التمثيلية الهزلية، وعادت إلى طباعها الحقيقية.ودون أن تلف أو تدور، أخرجت من حقيبة يدها أزرار القمصان ومشابك أربطة العنق وساعة الجيب والأوسمة الذهبية والفضية، وباقي الأشياء الشخصية للرئيس، ووضعت كل ذلك على المكتب أمام الرجل.

فقال لها:

- وهذا أيضاً؟

- نعم.. كل هذا!

كانت الفرنكات السويسرية جديدة إلى الحد الذي جعلها تخاف من أن تتلوث أصابعها بحبرها الذي بدا لها رطباً، لم يجف بعد.

بعد أن أخذت الفرنكات، لم تهتم بعدّها.. وعند الباب ودّعها الجواهرجي، بنفس حفاوة الاستقبال التي حظيت بها. وقبل خروجها من المحل، وبينما كان الرجل يمسك بالباب الزجاجي ليسمح لها بالخروج، قال:

- الشيء الأخير الذي أود أن أقوله لك يا سيدتي، هو أنني من برج الدلو!

في أول الليل، أخذ هوميروس ولاثارا النقود إلى الفندق الذي يقطن به الرئيس.

وبعد أن حسب الرئيس حساباته، وجد أنه مازالت تنقصه بعض النقود. فخلع من يده خاتم الزواج، ووضعه أمامه على السرير، وإلى جانبه وضع ساعة الجيب ذات السلسلة، وزوج الأزرار الذهبية ومشبك ربطة العنق الذي كان يستعمله.

ردت لاثارا الخاتم إليه وهي تقول:

- هذا ذكرى.. لا يجب أن تبيعه!

وقبل الرئيس ملاحظتها تلك ، وأعاده إلى اصبعه.

ثم أعادت إليه ساعته وهي تقول:

- وهذه أيضاً.. كيف يمكن لأحد أن يبيع ساعة في سويسرا؟!

- لقد بعنا واحدة.

- أعرف.. ولكن بسبب الذهب الذي بها.

- وهذه أيضاً ساعة ذهبية!

- نعم.. ولكن سيادتك يمكن أن تبقى بدون إجراء العملية الجراحية، ولا تبقى بدون معرفة الوقت.

ورفضت أيضاً الإطار الذهبي للنظارة، على الرغم من أنه كان لديه إطار آخر من العاج.

وزن الأشياء التي ردتها إليه لاثارا بيده، ووضع حداً لشكوكه قائلاً:

- ومع ذلك فإننا ببيع هذه الأشياء سنحصل على ما يكفي!

وقبل أن تغادر لاثارا المكان، جمعت الغسيل المنشور على الحبل، دون أن تستشير الرئيس في ذلك، لتأخذه معها

إلى بيتها لتجفيفه وكيه، ثم ركبت الدراجة النارية، خلف هوميروس، وهي تمسك به من خصره.

وبعد دقائق بدت لاثارا، وكأنها أفاقت من حلم طويل، وقالت:

- اللعنة!
- ماذا؟
- العجوز المسكين.. ما أتعس حياته!

في يوم الجمعة التالي، أجريت للرئيس عملية جراحية دامت خمس ساعات، تركت الأمور غامضة كما كانت ولو مؤقتاً.

وكان العزاء الوحيد لهوميروس ولاثارا، هو أنه مازال حياً.

بعد عشرة أيام نقل الرئيس من غرفة الإنعاش إلى غرفة مشتركة مع مرضى آخرين، وتمكن هوميروس ولاثارا من زيارته.

كان شخصاً آخر: مبلبلاً وشاحباً، بشعر خفيف كان يتساقط بمجرد احتكاكه بالوسادة، ولم يتبق له من وسامته ورشاقته السابقة سوى حركات يديه.

كانت محاولاته الأولى للمشي بمساعدة عكازين طبيين تكسر القلب وتثير الشفقة.

كانت لاثارا ترافقه في المستشفى، وتبيّت معه، لتوفر له أجر ممرضة ليلية. واستنفذت سهرات الليالي الطويلة التي قضتها إلى جواره آخر ما تبقى لديها من صبر وكتمان.

ثم أخيراً خرج من المستشفى، ودفع هوميروس الذي كان قد تحول إلى مدير لحسابات الرئيس ولرأسماله القليل، حساب المستشفى، ونقله في إسعافه بمساعدة زميلين له، إلى حيث استقر معه في بيته، في غرفة الأطفال الذين لم يعترف بهم مطلقاً، وشيئاً فشيئاً عاد إليه وعيه. اجتهد في تمارين إعادة التأهيل بالتزام عسكري صارم، وبدأ يمشي بمساعدة عكاز واحد، ولكنه حتى عندما كان يلبس أفضل ملابسه، فإنه لم يكن يشبه كثيراً ما كان عليه من قبل، لا في مظهره ولا في طباعه.

ونتيجة لخوفه من الشتاء القاسي الذي كان على الأبواب، والذي اعتبر فيما بعد أسوأ شتاء مرت به البلاد خلال قرن من الزمان، فإنه قرر الرحيل من جنيف والعودة إلى بلاده في الكاريبي، على سفينة تبحر من ميناء

مرسيليا، ضارباً عرض الحائط برغبة الأطباء في ابقائه فترة أطول تحت الملاحظة.

وفي اللحظات الأخيرة، تبين أن نقوده لا تغطي مصاريف السفر، فأرادت لاثارا تكملتها خفية دون علم زوجها، بأخذ جزء من مدخرات الأطفال، ولكنها وجدتها أقل مما تتوقع، فصارحت هوميروس بالأمر، فاعترف لها بأنه كان قد أخذ خفية مبلغاً من تلك المدخرات لتكملة نفقات المستشفى. فقالت لاثارا بلهجة تنم عن الصبر.

لابأس.. فلنعتبره ابننا الكبير.

وفي الحادي عشر من ديسمبر، ركبوه القطار المتجه إلى مرسيليا، وسط عاصفة ثلجية شديدة. ولم يكتشفوا رسالة الوداع التي كان قد كتبها لهم إلا بعد عودتهم.. كان قد تركها فوق منضدة الأطفال الصغيرة، كما ترك أيضاً خاتم زواجه للصغيرة باربارا، وترك كذلك ساعته الذهبية ذات السلسلة للصغير لاثارو.

وبما أن يوم الرحيل كان يوم أحد.. يوم إجازة، فقد توجه بعض الجيران الكاريبيين الذين اكتشفوا السر، إلى

محطة السكك الحديدية في (كورنا فان) وبصحبتهم فرقة موسيقية من مدينة (فيراكروث) لوداع الرئيس.

كان الرئيس خامد الهمة، يرتدي معطفه دون اعتناء، وحول عنقه تلفيحة طويلة ملونة، كانت من قبل تتلفح بها لاثارا.

ظل واقفا بباب آخر عربة من عربات القطار، يلوِّح بقبعته لمودعيه، رغم العاصفة الثلجية.

وبدأ القطار في التحرك، وفطن هوميروس إلى أن عكاز الرئيس كان في يده، فجرى خلف القطار الذي كان قد أسرع في تحركه، حتى آخر الرصيف، وألقى بالعكاز بكل قوته لكي يلتقطه الرئيس.. غير أن العكاز سقط وتحطم تحت عجلات القطار.

وكان آخر ما رأته لاثارا، يد الرئيس المرتجفة الممدودة لكي تلتقط العصا، في حين كان حارس القطار يجذب الرئيس من ثيابه لينقذه من السقوط.

وجرت لاثارا وهي مذعورة للقاء زوجها، محاولة الابتسام لإخفاء دموعها، ثم صرخت:

- يا إلهي!.. هذا الرجل لن يموت أبداً!

وصل الرئيس إلى بلاده في الكاريبي سالماً حسبما ذكر في برقية الشكر الطويلة التي وصلت منه، ولم يصل منه أي خبر لمدة عام بعدها ثم وصلت منه رسالة من ست صفحات مكتوبة باليد. كان من المستحيل التعرف عليه من خلالها!.. كان الألم قد عاوده - حسبما ذكر - بنفس شدته وانتظامه السابق، ولكنه كان قد قرر عدم الإذعان له أو الاهتمام به، والعيش كيفما اتفق.وكان صديقه الشاعر إيميه سيزيري، قد أهداه عكازاً مرصعاً بالصدف، غير أنه قرر عدم استعماله، وظل مدة ستة أشهر بعد إجراء العملية الجراحية يأكل اللحم بانتظام، وكذا كافة أنواع الكائنات البحرية (والجمبري على وجه الخصوص)، وكان بمقدوره تناول نحو عشرين فنجاناً من القهوة السوداء، غير أنه أقلع عن عادة قراءة الفنجان، لأن التكهنات كانت تأتي دائماً على عكس ما يتوقع.

وفي يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين، شرب عدة كؤوس من الروم المارتينيكي، شعر معها براحة كبيرة، كما عاد إلى التدخين.

لم يكن يشعر بالطبع بأي تحسن ولا بأي تردي في صحته.

وكان سبب الرسالة الحقيقي على ما يبدو هو إخبارهم بمشاعر الإغراء التي كانت تنتابه منذ عاد إلى بلاده، لتولي مسؤولية قيادة حركة إصلاحية. حتى وإن لم يجنِ من وراء ذلك إلا مجداً متواضعاً، وألا يقضي نحبه شيخاً بائساً على فراشه. واختتم رسالته قائلاً: إن رحلته إلى جنيف كانت محروسة بالعناية الإلهية!

الفهرس